جبران خليل جبران

(المولود 1883 ، والمتوفي 1931)

مقالة بقلم كريستوفر باك

كان خليل جبران، الكاتب والفنان العربيّ الأصل والأمريكيّ الجنسية، صاحب مؤلّفات أوسع الكتب انتشارا، وهي أعمال لم تنل بعد من ترحيب النقاد ما نالته من إعجاب جمهور القرّاء. ولاشك في أن أعمال جبران العربية كانت أعمالا محوريّة فيما يتعلّق بتطوّر الأدب العربيّ في القرن العشرين، من حيث أن الرومانسية بدأت بجبران، تلك الشخصيّة الرئيسية في حركة المهجر التي قام بها الأدباء الذين هاجروا إلى الغرب واتخذوا من مدينة نيويورك مركزا لهم. كما أنه ليس هناك من شك في أن رائعة جبران – ألا وهو كتاب "النبيّ" (عام 1923)، وهو مؤلّف في الحكم والأمثال صغير الحجم يقدّم للقارئ أقوالا حكيمة تقارب النبوءات في أسلوبها – هو عمل ينتمي إلى الأدب العالمي نظرا لنيله شهرة وشغفا من القراء في جميع أنحاء المعمورة. أما عن كونه أديبا أمريكيا فإن جبرن لم ينل سوى النذَر اليسير من اهتمام نقاد الأدب الأمريكيين. وبما أن كتاب "النبيّ" ما زال في انتظار الاعتراف به كعمل كلاسيكيّ أمريكي، وكاتبه لم يُقبَل بعد في زمرة الأدباء الأمريكيين، يكون إدراج جبران في موسوعة المؤلّفين الأمريكيين أمراً يلزمه ما يبررّه لدى أوساط النقد الأدبيّ.

وقد جعل لفيف من مشاهير أساتذة الجامعات في مجال الأداب (من بينهم "عرفان شهيد" البروفيسور الفخري بجامعة "جورج تاون" Georgetown بالعاصمة الأمريكية، و"سهيل بشروئي"، البروفيسور الفخريّ، والرئيس السابق لكرسي خليل جبران للقيم والسلام بجامعة مريلاند Maryland) – جعلوا مسألة الاعتراف بجبران ككاتب ومؤلّف أمريكي أمرا جديرا بالاهتمام. إذ يرى بشروئي أن من حق أمريكا أن تعتبر جبران واحدا من أبنائها (حتى ولو لم يكن من مواطنيها الأصليين)، بنفس القدر والأصالة التي تحق لوطنه لبنان أن ينادي به إبنا، كما يقول بشروئي: "لم يصبح جبران بفضل أعماله مواطنا لبنانيا فحسب وإنما صار أمريكيا أيضا، بل دعونا نقل إنه أصبح في الحقيقة صوت الوعي العالميّ"[1]. فلا يجب أن ننسى أن جبران لم يعش سوى الإثني عشر عاما الأولى من عمره في قرية "بشرّي" (وهي قرية تقع على مقربة من مرج "الأرز الربّاني" الشهير) حيث كان مولده في عام 1883، وذلك قبل هجرته هو وأسرته إلى الولايات المتحدة. وباستثناء عامين آخرين قضاهما في باريس من أجل الدراسة وزيارتين عابرتين إلى لبنان، فإن جبران قد صرف كل سنوات عمره كإنسان بالغ – بل الثلثين الأخيرين من حياته – على أرض أمريكا بشكل كامل، قبل أن توافيه المنيّة بمدينة نيويورك عن ثمانية وأربعين عاما.

---

[1] بند Bushrui في القسم الثاني من المراجع المدرجة في ختام هذه المقالة (عام 1996 ص 10)

كما أن مدينة "أورفاليز" Orphalese التي ذكرها جبران في كتابه "النبيّ" غالبا ما يقال أنها كناية عن أمريكا (أو مدينة نيويورك).

أما البروفيسور شهيد فإنه يلفت النظر إلى أن كتاب "النبيّ" كان أكثر الكتب الإمريكية مبيعا في القرن العشرين، إذا ما استثنينا "الكتاب المقدس"، وأن مؤلفات جبران قد فاق الطلب عليها أعمال كل شعراء أمريكا من "وولت ويتمان" Walt Whitman إلى "روبرت فروست" Robert Frost. وطبقا لما قاله صاحب دار النشر الكائنة بنيويورك التي تعهّدت أعمال جبران "ألفريد نوف" Alfred A. Knopf، فإن مبيعات كتاب "النبيّ" قد تجاوزت عشرة ملايين نسخة. وكان نجاح الكتاب راجعا أولا وأخيرا إلى جاذبيته للقراء، ذلك لأن الناشر لم يقم بأية دعاية تذكر عنه. ومن الغريب أنه ومع هذا التغافل الحادث في أوساط النقد الأدبي في أمريكا، يبقى جبران بغير شك أحب من أقرضوا القصائد النثرية إلى قلوب القرّاء في البلاد. وحقيقي أن جبران كان عنده ما يمكن تسميته بالشخصية المزدوجة، وكان يسكن عالمين من عوالم الفكر في آن واحد. فلكونه أمريكي من أصل عربيّ، كتب جبران بلغتين: أولاهما العربية لغته الأم، والثانية هي الإنجليزية لغته المكتسبة. فإذا ما تحدّثنا عن أعماله العربية نجد ذلك الأديب البارع الذي كان لكتاباته أثر عظيم في الشرق الأوسط والذي ألهم نهضة أدبية في العالم العربي بالقدر الذي جعل كل ما نُظِم مِن شعر عربيّ حديث يحمل سمات شعر خليل جبران. إلا أننا حينما نتكلّم عن أعماله الإنجليزية نجد النذر اليسير من تأثيرها في الأدبيات الأمريكية، وذلك على الرّغم من استهواء جمهور القرّاء العظيم لها. ومع ذلك فإن من رأي البروفيسور "شهيد" أن جبران لم يلقَ ما يستحقّه بوصفه كاتبا أمريكيّا. وما يفاقم من هذه المشكلة هو أن كتاب "النبيّ" يقبع بكل تأكيد داخل صومعة فخيمة قد انفصلت عن جذورها الثقافية العربية. ولذلك فإن من المتعيّن تقييم كتاب "النبيّ"، أو إعادة تقييمه من حيث حسناته الأدبية وإسهاماته الفرديّة في التراث الأدبيّ لأمريكا.

سيرة جبران

ومما يعقّد سيرة خليل جبران هو أن جبران نفسه قد نسج حولها بعضا من القصص الخيالية، إذ جمّل شخصيته وفخّمها وجعل من نفسه أسداً بل وأسطورة. فمثلا كان مما ادّعاه أن أباه كان من أثرياء العرب الأرستقراط، وأن والده كان يملك قصرا فخيما كانت تحرسه الأسود، بل إنه لم يقاوم فرضية روّجها البعض عنه وهو أن روح الشاعر الرسّام الصوفيّ الإنجليزيّ "ويليام بليك" William Blake قد حلّت فيه. إلا أن الحقائق على أرض الواقع تنمّ عن نشأة جبران المتواضعة، فيصبح من الضروري هنا أن نزيل هذه الهالة عن شخصه.

ولد جبران خليل جبران في السادس من يناير عام 1883 في قرية بشرّي Bsharri، وهي قرية تحيطها المناظر الخلاّبة، بيد أنها إحدى القرى المارونية الفقيرة، وتقبع على سلسلة تلال خصيبة تتوسط وادي قديشة ومرج أرز لبنان الذي أصبح يعرف الآن "بالأرز الربّاني" في الشمال. وإسمه الأصلي الكامل هو جبران بن خليل بن جبران، وتربّى على المذهب الماروني، وكان صبيّا مرهف الحسّ. أمّا والده فكان مقامرا فظّ الطّبع يمتلك بستانا من أشجار الجوز يبعد عن القرية خمسة وثلاثين ميلاً، وتسبب تصنّع هذا الوالد للعظمة (كما يستدل من ذلك على مبسم السجائر الكهرمانيّ

الذي كان من علائمه المميزة)، وتعوّده الإسراف والبهرجة، وتعفّفه من أعمال الفلاحة، وطبعه المتقلّب، وإدمانه القمار على لعبة الدومّة – تسببت في أن ينشد جبران الخلوة في المناطق الرّيفية المجاورة التي كان مرج "الأرز الربّاني" شارفا عليها. ولم يتلق جبران – الذي نشأ على التأمّل والابتكار والتدبّر – إيّ تعليم مدرسيّ في بشرّى، وإنما تلقّى دروسا خصوصية ممن كان يدعى "سليم الضاهر"، الذي علّمه مبادئ اللغة العربية والتاريخ والرّسم. وظهرت على جبران الصّبيّ نزعة للغيبيات، إذ اعتاد في مستهل حياته أن يعطي التجارب والمحن الشخصية دلالات روحية عميقة ويسبغ عليها مسحة دينية.

أما عن مهنة والدُهُ "خليل"، فقد اشتغل كاتبا في محل عقاقير كان مملوكا لعمّه إلى أن اضطرته ديون القمار إلى أن يقبل عملا تستهجنه القرية، وهو جباية رسوم الماعز والأغنام لحساب "راجي بك" عمدة القرية ومتصرّفها المعيّن من قِبل السلطة العثمانية. أي أن والد جبران كان بغير موارية فتوّة يعمل لحساب رجل القرية القويّ. وبعد عزل "راجي بك" عام 1891على إثر شكايات عديدة رفعت في حقه، سُجن والد جبران نفسه بتهمة الاختلاس. وقد كانت لبنان في تلك الآونة ولاية تركيّة ضمن برّ الشّام (سوريا ولبنان وفلسطين) خاضعة للإمبراطورية العثمانية حتى سقوطها عام 1918. وبينما كان والد جبران حبيس زنزانته هذه، قررت زوجته "كاملة رحمة (والدة جبران) أن تترك وطنها لبنان وتهاجر هي وأطفالها إلى أمريكا حيث كان شقيقها يعيش، وكان وصولها إلى نيويورك في 25 يونيو عام 1895.

وبحلول شهر سبتمبر من نفس العام انتقلت الأسرة للإقامة في الحيّ الصينيّ بضاحية "ساوث إند" بمدينة "بوسطن"، وهو حيّ كانت غالبية سكانة من المهاجرين المعوزين، حيث كان يقطن فيه أقرباء من جهة الأم. ومن أجل أن تعول أبناءها الأربعة جبران وشقيقته "ماريانا" "وسلطانة" وأخيهم غير الشقيق "بطرس"، كانت كاملة ترتزق من بيع القماش والدانتيل في أحد أحياء بوسطن الرّاقية. كما فتحت محل بقالة كان يعمل فيه جبران وشقيقه بطرس. وفي سبتمبر من نفس العام أيضا التحق جبران بمدرسة "كوينسي" Quincy School حيث قُبِل في فصل لتعليم أطفال المهاجرين اللغة الإنجليزية. واختصر إسم جبران في سجلات المدرسة من إسمه الأصلي جبران خليل جبران، ليصبح "خليل جبران" مع تغيير كلمة Khalil لتصبح Kahlil ، إما من جرّاء خطأ كتابيّ أو لأن أحد المدرّسين أراد أن يكون إسم هذا التلميذ متمشّيا مع النطق الأمريكي. وعلى أية حال فإن جبران أبقى على هذا الإسم الثنائي بنطقه الجديد – أي Kahlil Gibran – واستخدمه إسما أدبيّا له.

وكانت هذه أيضا هي الفترة التي جذبت فيها موهبة جبران في الرسم اهتمام عدد متزايد من المعجبين، صار العديد منهم أساتذته في هذا الفن فيما بعد. ومن بين هؤلاء كانت السيدة جيسي فريمونت بيلي Jessie Fremont Beale التي كانت تعمل باحثة اجتماعية. وهي التي ما أن علمت بموهبة خليل في الرسم عن طريق إحدى معلّمات الرّسم بمنزل لتسكين المهاجرين، هي "فلورنس بيرس" Florence Pierce، حتى كتبت لصديقها "فريد هولاند داي" Fred Holland Day طالبة منه مساعدة هذا التلميذ. وتصادف أن كان "هولاند داي" هذا – وهو من

مواطني بوسطن الأثرياء المهتمّين بالفنون الجميلة وراعي سخيّ لها – يعمل أيضا في التصوير الفوتوغرافي، ومن هنا بدأ استخدام جبران، وشقيقته، وأخيه غير الشقيق، ووالدتهم كمادة في صوره الفوتوغرافية التي كان يروّج لها على أنها من الفن الجميل ويستخدم فيها الرّمزية والتلميحات الجسدية. وكان "هولاند داي" ينظر إلى مواهب الصبيّ جبران الفنية والأدبية على أنها دليل على العبقرية الفطرية، وصار ناصح الصبيّ وراعيه الحميم.

وبعد ذلك بعامين، أي عام 1987، عاد جبران إلى لبنان للالتحاق بمدرسة الحكمة التي أسسها الأسقف الماروني "جوزيف دبس" Joseph Debs في بيروت. وبحلول عام 1899 (عندما كان جبران لا يزال مراهقا في السادسة عشر من عمره) تورّط في علاقة غرامية مع أرملة كانت تكبره بست سنوات تدعى سلطانة ثابت، وهو ما كان مثار استهجان الناس آنذاك. وهي علاقة خلّدها فيما بعد في كتاب نشر له عام 1912 بالعربية تحت عنوان الأجنحة المتكسّرة. وسرعان ما عاد إلى بوسطن بحلول خريف 1899، ليعود إلى لبنان مرة أخرى عام 1902، ليعمل هذه المرّة كترجمان ودليل لإحدى العائلات الأمريكية. ولكن مرض والدته المفاجئ بأمريكا اضطره للعودة إلى الولايات المتحدة مرّة أخرى. (وكانت وفاتها بمرض السلّ يوم 28 يونيو 1903)

ويجدر الإشارة هنا إلى أن رعاية هولاند داي لجبران ظلّت تلعب دورا حاسما في حياة فنّاننا الشاب، حيث أطلعه على أعمال الكاتب البلجيكي الرّمزي "موريس ماترلينك" Maurice Maeterlinck وأعمال شعراء القرن التاسع عشر من أمثال "رالف والدو إيمرسون" Ralph Waldo Emerson، و"والت ويتمان" Walt Whitman، و"جون كيتس" John Keats، و"بيرسي بيشي شيلي" Percy Bysshe Shelley، مضاف إليهم كُتّاب آخرون من شعراء بريطانيا وأمريكا وأوروبا الذين اشتهروا مع بداية القرن العشرين. وبفضل رعاية "هولاند داي" هذه أصبح بمقدور جبران أن يبرز كموهبة جديدة في مجالي الرّسم والشعر، مما جعله يلج دوائر الصّفوة من الفنانين والمفكّرين المشار إليهم بالبنان في مدينة بوسطن. وفي عام 1903 رتبت إحدى صديقات هولاند داي وهي الشاعرة "جوزفين بريستون بيبودي" Josephine Preston Peabody معرضا لرسومات جبران في كلية ويلسلي Wellesley College. وفي يناير 1904 أقام "هولاند داي" نفسه وفي الأستوديو الخاص به معرضا لفنون جبران، كما أقيم معرضا مماثلا في الشهر الذي يليه بمدرسة كامبريدج Cambridge School، حيث كانت تتولى نِظارة هذه المدرسة مُدرّسة ذات أفكار تقدّمية تدعى "ماري هاسكل" Mary Haskell. ومع أنها كانت تكبر جبران بعشر سنوات، إلا أن تلك المناسبة كانت بداية لصداقة حميمة ربطتها بجبران طوال حياته. (وقد رفضت ماري عرضا منه أن يتزوّجها عام 1910، ظل بعدها جبران عازبا بقية عمره، وذلك رغم تهافت العديدات من النساء اللواتي كن منجذبات لذلك الشاب الوسيم البارع في الشعر والرّسم). وبعد معرضي يناير وفبراير 1904 المشار إليهما، شب حريق في عمارات هاركورت التي كان "استوديو هولاند داي" يحتل إحدى شققها، وهو حريق أتى على كافة أعمال جبران الفنّية التي كان قد أنجزها حتى ذلك التاريخ.

ولم تقتصر "ماري هاسكل" على كونها صديقة جبران الحميمة والمموّلة الخيّرة لمشاريعه فحسب،

بل تولّت أيضا مهام تدقيق أعماله الأدبية. إذ ظل يعتمد عليها في تصحيح فواصل جمله وقواعده اللغوية، وكانت تقترح عليه من آن لآخر استخدام مرادف أو آخر مما كان يعطي نغمة صوتية أكثر رخامة. فمن يونيو عام 1914 حتى سبتمبر 1923 طلب مشورتها ومساعدتها له في أعمال مثل "المجنون" (عام1918) و "السّابق" (عام 1920)، و "النبيّ" (عام 1923).

وفي عام 1905، نشرت لجبران قطعة أدبية قصيرة عنوانها "الموسيقى" في نيويورك على يد مطبعة المهجر العربية هناك، معلنة دخول الكاتب أوساط الأدب العالمية. ثم نشرت له في العام التالي مجموعة "عرائس المروج" باللغة العربية أيضا، وهي مجموعة نقد لاذع تضم ثلاث قصص قصيرة تعبر عن معارضة جبران لكل من "الدولة" و"الكنيسة السلطوية" ممثلتان في "الحكم العثماني" و"الكنيسة المارونية". وتبع ذلك في عام 1908 نشر قصيدته العربية "الأرواح المتمرّدة"، التي ضمّنها جبران المزيد من نقده الاجتماعيّ (وهي قصيدة ترجمت إلى الإنجليزية بعنوان Spirits Rebellious في طبعة صدرت عام 1948). وخلال هذه الفترة كان جبران عاكفا على تحرير كتاب عربيّ آخر عن فلسفة الدين والتديّن، ولكن هذا الكتاب لم يكتب له أن ينشر أبداً.

وفي نفس عام 1908، تكفّلت الآنسة "ماري هاسكل" (راعية جبران وممولته) بنفقات دراسته في أحد معاهد الفن الخاصة وهي "أكاديمية جوليان" بباريس لمدة ثلاثة أعوام، رسم خلالها سلسلة من اللوحات أسماها "أعمار النساء"، وكذلك صورة شخصية للنحّات الشهير "أوغست رودن" (أنتجها ما بين عامي 1909 و 1910). وفي هذه الأكاديمية تعرّف على أعمال الشاعر الإنجليزيّ الصوفي "ويليام بليك" (مولود 1757 ومتوفّي 1857)، وقد كان لأفكار هذا الشاعر أثر عميق في وجدان جبران. وكان لقاء جبران باثنين من أعلام أدباء المهجر العرب، وهما "أمين ريحاني" و"يوسف حويّك"، خلال هذه الفترة أيضا، إذ كان هذا اللقاء عام في باريس، حيث تصوّر بل ورسم ثلاثتهم خططا لإحداث نهضة ثقافية في العالم العربي.

وعندما عاد جبران إلى بوسطن عام 1910، صار يكسب قوته من رسم الصور الشخصية، وشرع في كتابة أول مخطوط أدبي له باللغة الإنجليزية، وهو الذي نشر لاحقا بعنوان "المجنون: أمثاله وأشعاره" عام 1918. إلا أنّه تبرّم من ضيق الساحة الثقافية في بوسطن فغادرها عام 1912، إلى مدينة نيويورك التي جعلها منذ ذلك التاريخ محلّ إقامته المهنية. وفي استوديو جبران الذي كان يقبع في البناية رقم 21 من غرب الشارع العاشر، جاد بأرقى أعماله. وكان يطلق على الأستوديو إسم "الصومعة"، أو خلوة الناسك.

وبلغ مجمل المؤلّفات الصّوفية التي كتبها جبران بالإنجليزية سبعة كتب هي:

- المجنون: أمثاله وأشعاره (1918)
- السابق: أمثاله وأشعاره (1920)
- النبي (1923)
- رمل وزَبَد: كتاب في الحِكَمْ (1926)

- يسوع ابن الإنسان (1928)
- آلهة الأرض (1931)
- التائه (1932)

وكان نشر كتاب "المجنون" *The Madman* عام 1918 هو العلامة الفارقة التي وضعت جبران في مصاف مشاهير الكتاب في أمريكا، فاتحة أمامه مجالا أدبيا جديدا باللغة الإنجليزية. أما عن المؤلّفات العربية فقد ظهر لجبران أعمال أخرى هي "دمعة وابتسامة" عام 1914، و"المواكب" عام 1919، و"العواصف" عام 1920، و "إرم ذات العماد" عام 1921 (وهي مسرحية من فصل واحد جرت أحداثها في مدينة عربية جاء ذكرها في القرآن الكريم سورة الفجر: آية 7)، وكذلك "البدائع والطرائف" عام 1923، وقد ترجمت جميعها إلى الإنجليزية في سنوات لاحقة لوفاة جبران.

وفي إيفاء منه بوعد كان قد قطعه على نفسه وهو صبيّ، صار جبران كذلك فنانا تشكيليا بارعا (فبجانب الرسم بالقلم والرّيشة قام أيضا بنحت أعمال صغيرة من الخشب). وفي ديسمبر من عام 1914 أقام جبران معرضا لرسومه بالقلم والريشة في صالة عرض "مونتروس Montross Gallery ، بنيويورك. كما أقام معرضين عام 1917، أحدهما بصالة "نودلر وشركاه" Knoedler and Company Gallery بنيويورك، والآخر بصالة "دول آند ريشاردز" Doll and Richards Gallery ببوسطن. كما أصدر الناشر "ألفريد نوف" Alfred A. Knopf عام 1919 كتالوجا يحوي نخبة من رسومات جبران أسماه "عشرين رسما *Twenty Drawings*". وكذلك قام نادي سيدات مدينة "بوسطن" بعرض أعماله في جاليري "لوحات النادي الزجاجية" في يناير من عام 1920.

وفي أبريل من هذا العام أسس جبران وبعض من رفاقه الأدباء من عرب المهجر جماعة أسموها "الرّابطة القلمية"، كان يشيرون إليها اختصارا باسم "الرّابطة" في كتاباتهم ونشراتهم الإنجليزية. وأُنتُخِب جبران لرئاسة هذه الرّابطة بينما آل منصب أمين سرّها إلى "ميخائيل نعيمي". وبذلك تأسست أول مدرسة رومانسية لأهل لغة الضّاد، سعى من خلالها جبران وغيره من أعضائها، الذين كانوا من أشد مناصري القومية، إلى الإصلاح وتحرير العرب من ربقة الاستعمار مستخدمين قوّة الكلمة. وأصدرت الرّابطة مجلّة أدبية سياسية أسموها "السّائح"، تولّى رئاسة تحريرها "عبد المسيح حداد"، وهي مجلّة كانت واسعة الانتشار في ربوع العالم العربي. وظلّ أعضاء الرّابطة يجتمعون بصفة منتظمة حتى وافت جبران المنية بعد تأسيسها بأحد عشر عاما.

وكان موت جبران في العاشر من إبريل عام 1931 بتليّف في الكبد مع بوادر مرض السلّ، وذلك في مستشفى "سانت فنسنت" بنيويورك. وكان قد صدر له قبل وفاته هذه بأسبوعين كتاب "آلهة الأرض"، ليكون آخر عمل له ينشر في حياته. وقد نقلت رفاته إلى لبنان ليدفن في القرية التي ولد ونشأ فيها. وكان وصول الجثمان إلى ميناء بيروت يوم الواحد والعشرين من شهر أغسطس، ووري جثمانه الثرى في الكنيسة القديمة بدير "مار سركيس" بمسقط رأسه بشرّى، حيث تبع ذلك بزمن قصير تأسيس متحف جبران خليل جبران بالقرب من الدّير تخليدا لإرثه الأدبيّ والفنّي.

وبعد وفاة جبران بما يزيد على نصف قرن، وذلك في اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر عام 1984 أصدر الكونجرس الأمريكي قانونا يسمح ببناء نصب تذكاري لتخليد ذكرى خليل جبران على أرض فيدرالية بتمويل خاص. وكانت النتيجة هي إنشاء "حديقة خليل جبران" التذكارية Khalil Gibran Memorial Garden، على جادة "ماساتشوستس" Massachusetts Avenue، قبّالة السّفارة البريطانية بواشنطن العاصمة. وكان افتتاح الحديقة في الرّابع والعشرين من مايو عام 1991 على يد الرئيس جورج بوش (الأب)، الذي أدلى حديثا في تلك المناسبة ذكر فيه أن هذا النصب التذكاري هو بمثابة تكريم "لإيمان جبران بمبدأ الإخاء، وندائه بالشفقة، بل وعشقه للسّلام في المقام الأوّل."

من تأثر بهم جبران من كتاب وفلاسفة

ترقى أعمال جبران إلى مصاف بليك Blake وكيتس Keats وويليام وردزورث William Wordsworth ، كما أن صداها في النفوس يعادل تأثير أعمال فلاسفة التسامي في أمريكا من أمثال إميرسون Emerson ووايتمان Whitman وهنري ثورو Henry Thoreau ، ولا مريّة في أن أعماله تحمل علامات من تأثّرها بأعمالهم. فمثلا نرى أن الشاعر العربي الناقد أحمد مجذوبة، وهو أكثر شعراء النثر احتراما لدى جبران – قد وجد في كتاب "المواكب" (1919) أصداء لغويّة وفلسفية لأعمال كل من إميرسون وتورو، بما يفصح عن التأثير المباشر لنصيري فلسفة التسامي اللذين عاشا في ولاية نيو إنجلاند الأمريكية. كما أن هناك رسالة شخصية بعث بها جبران في العاشر من نوفمبر عام 1925 إلى الأسقف أنطونيوس بشير (مترجم كتاب النبيّ إلى العربية) تُلقي المزيد من الضوء فيما يتعلّق باحتمال تأثر أعمال جبران بعدد آخر من الكتاب والفلاسفة. فهي رسالة أغدق فيها جبران الثناء على ذلك الأسقف لترجمته "لأربعة كتب قيمّة، أرى أنها من بين أفضل ما كتبه أدباء الغرب في زمننا المعاصر" على حد قول جبران. وسرد جبران هذه الأعمال الأربعة كما يلي:

- "كنز الفقير" الذي ألّفه كاتب الرّمزية البلجيكي موريس ماترلينك Maurice Maeterlinck ونشرت ترجمته الإنجليزية عن الأصل الفرنسيّ عام 1896 تحت عنوان The Treasure of the Humble
- "الثلثية أورجانوم Tertium Organum" (القالب الفكريّ الثالث) للفيلسوف وعالم الرّياضيات الروسي بيتر دميانوفيتش أوسبنسكي P. D. Ouspensky ، الذي نشرت ترجمته الإنجليزية في الغرب عام 1912
- "الفولكلور في كتاب العهد القديم *Folk-Lore in the Old Testament* " الذي نشر عام 1918 لعالم الأجناس الاسكتلندي جيمس جورج فريزر James George Frazer
- "رقصة الحياة *Dance of Life*" الذي نشر عام 1923 لعالم التناسل البريطاني هافيلوك إليس Havelock Ellis

وهناك باحثون آخرون قد خرجوا باستنتاجاتهم عن الأسلوب الذي أعاد به جبران قراءته في

المسيحية على ضوء الغيبيات الصوفية (الإسلامية). إذ عندما كان جبران ملتحقا بمدرسة الحكمة، فقد زاد على ما كانت تتطلبه دراسته هناك بأن نهل من منابع الأدب العربي، القديم منها والحديث، بما في ذلك أعمال أحمد فارس الشدياق، وفرنسيس المرّاش، وأديب إسحق، بجانب أساطين الصوفية من أمثال جلال الدين الرّومي، وعمر بن الفارض، والغزالي، وابن رشد، وابن سينا. وهو انتهال قدر له أن يحدث أثرا على أفكار جبران فيما تلى من سنوات. فقد حكى المهندس المعماري الأمريكي كلود براجدون Claude Bragdon كيف أن جبران قرب نهاية حياته كان يجد متعة في ارتجال ترجمة لقصائد شعراء الصّوفية لحلقات معجبيه، ويقص عليهم أيضا روايات من التراث الشعبيّ لوطنه لبنان. وهاهي الأعمال الأولى لخليل جبران تعمد إلى إعادة صياغة الفكر الصوفي بالأسلوب الذي وصفه سهيل بشروئي وجوي جنكنز Joe Jenkins في سيرتهما عن خليل جبران بقولهما أنها أعمال "تتشابه ما بها من حِكَم وأمثال ورموز واستعارات بقدر كبير مع ما في الصوفية من حكمة – أعمال تتناول مواضيعا من التناقض والوهم بما يوقظ المشاعر الفجّة لبشريّة تغط في سبات عميق وتتعلق أفئدتها بما هو زائل". ولو أن جبران ليس شاعرا صوفيا بأي حال من الأحوال، إلا أن أعماله تصوّر الإنسان على أنه في بداية قوس الصعود ثم يرتقي درجات الرّوح الواحدة تلو الأخرى مقتربا أكثر فأكثر من الله، وهو ترقّي يجعل المرء يكتسب صفات الله شيئا فشيئا.

وهناك أيضا ذكر لكل من فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche ، وكارل يونج Carl Jung ، ورابندراناث طاغور Rabindranath Tagore (الذي التقى به جبران في ديسمبر1916) على أنهم كانوا أيضا من المؤثّرين على جبران، وذلك على الرّغم من أن بشروئي وجنكنز يؤكّدان أن جبران كان منجذبا إلى أسلوب نيتشه، وليس إلى أفكاره ومشاعره وفلسفته. وهناك دليل أيضا على تأثّر جبران بالأفكار البهائية: فقد أعارت الرّسّامة النيويوركية جولييت طومسون، التي كانت ضمن دائرة صداقات جبران الفنّية وإحدى المؤمنات بالدين البهائي، العديد من كتابات بهاء الله، مؤسس البهائية، بلغتها العربيّة الأصلية. وهي كتابات أثّرت تأثيرا عميقا على جبران، إذ أنه صرّح في وقت لاحق، كما حكى بشروئي وجنكنز في سيرتهما عنه، بأن كتابات بهاء الله العربية هي "أروع ما كتب" بلغة الضّاد. كما أن جبران قام يوم التاسع عشر من أبريل عام 1912 برسم بورتريه شخصي في مرسمه لعبد البهاء (المولود 1844 – والمتوفي 1921) وعبد البهاء هو ابن وخليفة بهاء الله مؤسس البهائية. وفي نفس ذلك اليوم كتب جبران في رسالة إلى (راعيته) ماري هاسكل أنه وفي محضر عبد البهاء "رأي الغيب وامتلأ". (حسبما رواه بشروئي وجنكنز). وقد أوردت جولييت طومسون في ذكرياتها في زمن لاحق أن جبران قد أخبرها بأن لقاءاته بعبد البهاء قد أثّرت تأثيرا عميقا عندما كتب مؤلّفه "يسوع إبن الإنسان"، الذي نشر عام 1928.

على أن جبران في نهاية المطاف، وبينما شكّلته ما تأثر به من هؤلاء، إلا أنه طوّر فنه في الرّسم والكتابة بأسلوبه الشخصي. ويمكن توصيف حاصل جمع ما يسمّى بالتأثيرات على أنها نقاط التقاء فكريّ، أي امتزاج التوجّهات والآراء التي غزل منها جبران خيوطا ذهبيّة أزال عنها كل لون بقدرته التخليقية ثم أكسبها بريقاً جديدا بعبقريّته الذكيّة.

ويمكننا أن نصف أشعار جبران النثرية، المبتدئ منها والرّاقي، على أنها نوع من أدب الحكمة الدنيوية التي تستهدف جماهير القرّاء والمتذوّقين من ذوي الاهتمامات الروحية، دون أن تكون اهتمامات دينية بالضرورة. ومن هذا المنطلق فإن نصائح الحكمة التي جاد بها جبران كما ساقها على لسان مختلف شخصيات أعماله الأدبية تكون في طبيعتها نصائحا إلهامية أكثر من كونها وصفات علاجية، ونادرا ما تلج أعمال جبران مضمار التعاليم الاجتماعية التي تصلح لأن يسترشد بها أي مجتمع بمجموع أفراده.

أما من الناحية الإيديولوجية، فإن جبران كان يحث الناس على الإفلات من حبائل الماديّة (وذلك على الرّغم من أن كتابه "النبيّ" قد درّ عليه دخلا محترما). كما حضّ على الترفّع عن النزاعات الدينية الطائفية، وروّج للإصلاح الإجتماعي في العالم العربي، وكان رائدا في مجال خلق علاقات مثالية بين أهل الشرق الغرب، وهي علاقات اعتقد أن بإمكانه أن يلعب فيها دور الوسيط الثّقافي. وبينما كان مروّجا وناشرا للروحانية والفضيلة إلا أنه لم يكن قدوة في تطبيقها. وعلى الرّغم من أنه كان يميل إلى التصوّف والزهد إلا أنه لم يكن متصوّفا زاهدا. بيد أن أعماله الفنّية غلّفت الحياة والطبيعة بهالة من الغموض الرّباني.

وفيما عدا ذكر كيفية نشرها إبّان حياته، فإننا لن نتناول فيما يلي من نقاش أعمال جبران العربية، وهي التي ترجم عدد منها إلى الإنجليزية، ذلك لأن أعماله الإنجليزية هي التي تبرز جبران بوصفه كاتب أمريكيّ يشار إليه بالبنان. ومن هذا المنطلق فإننا سنلجأ فقط إلى أعمال جبران العربية كمعين على تفسير بعض من أهم المواضيع التي تناولتها أعماله الإنجليزية.

1. كتاب المجنون

تحتفظ مكتبة برينستون Princeton في قسمها المخصص للكتب النادرة والمقتنيات الخاصة بأحد عشر مخطوطا أصليا من مخطوطات الأمثال الأربع والثلاثين التي احتواها كتاب "المجنون: أمثاله وأشعاره" (الذي ألّفه جبران عام 1918)، وذلك ضمن مجموعة مقتنيات "وليم شهادي William H. Shehadi" عن أعمال جبران. ويلاحظ من يطّلع على هذه المخطوطات أن ترتيب الأمثال الواردة فيها يختلف نوعا ما عن ترتيبها الذي نشرت عليه. كما سيلاحظ أيضا أن المخطوطات تمتلئ من أولها لآخرها بحواشي وملاحظات كتبت باللغة العربية. ويقال أن كتاب المجنون قد نظمه جبران على نمط الفولكلور اللبناني.

أما عن الشخصية الرئيسية التي أخذ الكتاب عنها إسمه، فإن "المجنون" كانت له سبعة أرواح سابقة، ويبدأ حديثه بتذكّر تجارب حياة كل روح منها ويسوق عنها الأمثال. وفي الجزء الأخير من الكتاب يحلو لجبران أن يشخّص ملموسات مثل وريقة العشب، وورقة الخريف، والعين، ومحسوسات مثل الكآبة والمسرّة، وما إلى ذلك. وتنم عشوائية كتاب المجنون وافتقاره إلى التجانس عن بدايات تطوّر ملكة جبران الأدبية وإن لم تكن قد نضجت بعد، هذا إذا ما نحن تكلّما عن أعماله الإنجليزية. وبينما يوصف كتاب المجنون بأنه مجموعة من الأمثال والأشعار التي تعضّد الحياة والعيش، إلا أنه لا يمكن أن يقال عنه إنه عمل توجيهيّ. فهو باعث على التدبّر الذاتي، ولكنه لا

يعطي مفهوما واضحا للمسار الشخصيّ؛ اللهم إلاّ فيما يتعلّق بالرسالة الأساسية التي أراد جبران إيصالها، كما تتضح من آخر جملة في فصل "البحر الأعظم": 'حينئذ تركنا هذا البحر ناشدين البحر الأعظم'. [نقلا عن ترجمة أنطونيوس بشير]. فإذا كان لكتاب المجنون رسالة فهي عن اكتشاف النّفس الحقّة – وما البحر الأعظم إلاّ النفس الأعظم.

وإذا ما تطرّقنا إلى فصل "بين هجعة ويقظة" وهو عنوان اختاره من قام بالترجمة العربية للكتاب عوضا عن العنوان الإنجليزيّ The Sleep-Walkers، يأتي ذكر "الذّات الطليقة" التي ترمز إلى ذات أخرى يفترض جبران أنها أسيرة للأهواء وسائر القيود الأخري. وفي فصل "الذوات السّبع"، يعلّمنا المجنون أن هناك الذّات المتمرّدة، وذات المتعة، وذات الشّقاء والأسى، والذّات الثائرة الهوجاء، والذّات المتحرّية، والذّات المشتغلة العاملة، والذّات العاطلة. وفكرة مراحل النفس السبع هي مثال فلسفيّ معروف عند المتصوّفة، ولو أن جبران لم يتقيّد بهذه المراحل بذاتها فترك لخياله العنان عندما ساق هذه الأمثلة السبع. وفي فصل "الليل والمجنون" يخبر الليل هذا المجنون عن "ذاته الصّغرى" و "ذاته الجبّارة"، وأن روحه مقنّعة بقناع ذي طيات سبع (ص 60-61). وما يقصده جبران هو ذوات ليست بمنفصلة أو متسلسلة، إنما ذوات تمر بمراحل مختلفة من التطوّر الروحيّ.

وعندما قارن جبران في كتاب "المجنون" بين النفس المغيّبة والنفس الواعية لم تكن مقارنته واضحة ناضجة. كما أنّه تحدّث قبل ذلك في مؤلّفه العربي "دمعة وابتسامة" (1914) عن الذّات الباطنة بوصفها روح نامية بين عضل الجسد وعصبه. إلا أن نظرية الذّات العظمى عند جبران لم تتعد بالكاد المقابلة بين ثنائية الرّوح والمادة. ومع ذلك فإن فكرة الذات الغافلة والذات الواعية يمكن تتبع خيوطها في جنبات أعمال جبران الناضجة وفيها نجد أن نضج تلك النّظرية قد واكب نضج أعماله.

2. كتاب "السّابق"

يتكوّن الجزء الأكبر من كتاب جبران "السّابق: أمثاله وأشعاره" (1920) من حكايات يتخلّلها هنا وهناك النّذر اليسير من الأشعار. ولا تختلف هذه الحكايات كثيرا عن قصص المتصوّفة. وتضمّ مجموعة ويليام شهادي William H. Shehadi، المحفوظة بمكتبة برينستون Princeton سبعة من بين القصص الأخلاقية الأربعة والعشرين التي يتضمّنها كتاب "السّابق". وتجري أحداث حكاية "البهلول God's Fool" في مدينة الشريعة، وهي إشارة واضحة إلى أحكام الإسلام (مع أن هذه الإشارة لم تكن واضحة عند الناطقين بالإنجليزية من قرّاء جبران). كما أن حكاية "الخلافات" تدور وقائعها في مدينة "عيشانا"، وهي تنمّ عن احتمال تأثر جبران بالهندوسية، ذلك لأن "إيشانا" هي أحد الوجوه الخمسة للإله "شيفا". ولكن يتعذّر الحكم على مدى الرّمزية في اقتباس جبران لأسماء أماكنه.

والفكرة الكامنة في كتاب "السابق" هو حاجة الإنسان إلى اليقظة الرّوحية. وعلى نقيض ما في كتاب "المجنون" تطوّرت نظرية الذّات الواعية بدرجة أكبر. والفكرة من الكتاب تسترعي انتباه

القارئ في السطر الافتتاحي للكتاب إذ يقول جبران: "أنت سابق نفسك يا صاح. وما الأبراج التي أقمتها في حياتك سوى أساس لنفسك الجبّارة". أي أنه يفتتح المقدّمة بقوله أن كل إنسان هو سابق نفسه، وأن لكل إنسان ذات عملاقة يكمن بداخلها كل من ذاته العظمى (والذّات العظمي هذه هي إحدى حكايات الكتاب) وذاته الحرّة الطّليقة. ويمكن أن يقال عن الذات العظمى أنها "صميم الفؤاد". وفي حكاية "طائر إيماني" (وهو عنوان اختاره المترجم لهذه الحكاية بدلا من عنوانها الإنجليزي الأصلي "من أعماق قلبي Out of My Deeper Heart" يحدّثنا جبران عن ذات الإنسان الكبيرة. (ص 45) كما صاح "المجنون" في القصّة الرّمزية التي أعطاها جبران عنوان "المصلوب" قائلا: "لأننا قد قدّر لنا أن نصلب من جبابرة أشد منكم قدرة وبطشا بين الأرضين الدّنيا والسماوات العليا". (ص 72) فمن صُلب سيصعد بقدرة عظمي، وكذلك فإن النفس الدّنيا عندما تُصلب تصعد كنفس كبرى متسلّحة بوعي دائم الترقّي والاتّساع في إدراكه.

ويضع جبران الذّات الروحية في نقيض يقابل الذّات المتعلّقة بالمادّة – أي الذات التي يجب أن تصلب – وهي ذات وصفها جبران من زوايا عدّة. ففي قصيدة "المحبّة" يحدثنا جبران عن "الذات الضّعيفة" (ص 15)، بيد أنه في نقطة تالية من الكتاب، في قصيدة "وراء وحدتي"، يجري ذكر هاتين الذاتين جنبا إلى جنب: "إن لي وراء هذه الذّات السّجينة ذاتا حرّة طليقة". أما خاتمة كتاب "السّابق" فهي خطبة للسابق نفسه أعطيت عنوان "اليقظة الأخيرة"، يخاطب فيها الهاجعين في نومهم قبل طلوع الفجر مباشرة. وهو خطبة نسجت على منوال أنبياء الماضي. فقد أحبّهم جميعهم "كثيرا وفوق الكثير"، بمن فيهم "جبّاركم وصعلوككم". (ص 70)، وهما يرمزان إلى الذات الواعية والذات الغافلة من الناحية الرّوحية). والرّسالة التي أراد جبران إيصالها هي أن الصّحوة الرّوحية لازمة. وأنه إذا كان كل إنسان "سابقا"، كما يطالعنا أول سطر في الكتاب بكل صراحة، فإن ذلك السّابق سيبصر بنور الله كما جاء في خطبة "اليقظة الأخيرة"، التي طفق فيها السابق يقول: "... ويتكلّم بأنبياء المتقدّمين. فيحسر القناع عن نفوسنا ويحطّم أقفال قلوبنا". (ص 78). فالسّابق بداخل كل نفس قادر على التنبّؤ، ثم يصبح في النهاية نبيّا مكلّفا بإيقاظ النّفوس وتنويرها.

3. كتاب "النبيّ"

كان عنوان "السابق"، كما ذكر الشاعر ميخائيل نعيمي آحد معاصري جبران عنوانا استخدمه جبران عن قصد كبشير لكتاب "النبيّ". وقد انتوى جبران لكتاب "النبيّ"، الذي نشر عام 1923، أن يكون المجلّد الأول من ثلاثية كان من المقرر أن يتبعه مجلّد بعنوان "بستان النبيّ" (يتناول فيه علاقة البشرية بالطبيعة) ثم مجلّد ثالث بعنوان "موت النبي" (عن علاقة البشرية بالله). وتدور أحداث المجلّد الأول عشيّة رحيل النبيّ من أورفاليس Orphalese إلى جزيرته الوطن، بينما تدور أحداث المجلّد الثاني على الجزيرة نفسها في بستان أم النبيّ، أما المجلّد الثالث الذي كان ينتوي كتابته فيفترض أن يتناول رجوع النبيّ إلى أورفاليس فلا يكون في انتظاره إلا أن يسجن ثم يرجم حتى الموت في ساحة سوق المدينة فور إطلاق سراحه. وكان جبران قد أنجز جزء من المجلد الثاني فأكملته باربارا يونج Barbara Young (وهو الإسم المستعار لمن تدعى هنرييتا بريكنريدج بوتون Henrietta Breckenridge Boughton التي ادّعت أن كانت سكرتيرة جبران ورفيقته

خلال الأعوام السبعة الأخيرة من حياته)، ونشر هذا المجلّد الثاني بعد وفاة جبران بعنوان "بستان النبيّ" عام 1933. (إلا أن كون هذا الكتاب من عمل جبران الحقيقي فهو مثار جدل وتشكيك). وتم حفظ تسعة عشر من المحاورات، أو المقالات الشعرية، الستة والعشرين التي يتكون منها كتاب "النبي" مضافا إليها مقدّمة الكتاب وخاتمته (أي ما يعرف بالوداع) – تم حفظها في مكتبة برونستون، ضمن مجموعة شهادي.

ومن يقرأ كتاب النبيّ يسترعى انتباهه أن الحبكة الروائية فيه إطارية لا تتطرّق إلى شرح رؤوس المواضيع التي يسوقها المؤلّف شرحاً وافيا. وقد اختار جبران لنبيّه إسما هو "المصطفى"، وهو أحد ألقاب سيدنا محمدّ، وقد جعل جبران من ذلك النبيّ شخصا غريبا صرف إثني عشر عاما من عمره وحيداً في مدينة أورفاليس انتظارا لرجوعه إلى الجزيرة التي كانت مسقط راسه. ثم حدث أن ارتقى تلاّ فيما وراء أسوار المدينة فرأي سفينة ذات أشرعة أرجوانية تتسلل من بين الضباب فأسرع إلى المدينة للقائها، وهناك اعترضته جمهرة من الناس في الساحة الكبرى قدّام المعبد قد جاءوا لوداعه.

وكان بين هذه الجمهرة عرّافة تدعى ألمطرا Almitra توسّلت إلى النبيّ أن يمنحهم بعضا من حكمته قبل انصرافه عنهم قاصدا وطنه. فقالت له ألميترا: "حدّثنا عن الحبّ". وصاح آخر: "حدّثنا عن الزواج". ومن هنا استجاب لهم النبي وحدثم عن أهم أمور الحياة: عن الحب، عن الزواج، عن الأطفال، عن العطاء، عن المأكل والمشرب، عن العمل، عن الفرح والحزن، عن البيوت، عن الثياب، عن البيع والشّراء، عن الجريمة والعقاب، عن القوانين، عن الحرّية، عن العقل والعاطفة، عن الآلم، عن معرفة النّفس، عن التعليم، عن الصداقة، عن الكلام، عن الزمن، عن الخير والشر، عن الصلاة، عن المتعة، عن الجمال، عن الدين، عن الموت.

وقد يكون أحبّ هذه الأحاديث في الثقافة الشعبية الأمريكية بغير منازع هو الحديث "عن الزواج"، الذي يقرأ في أعداد لا تحصى من حفلات الزفاف. فكل هذه المسائل هي محطّ اهتمام عموم البشر. وأفضل ما تصنّف به محاورات "المصطفى" هو أنها تأمّلات روحية، ولكنها لا ترقى، بل لا تصبو لأن ترقي، إلى مرتبة الآحاديث النبويّة أو النصوص المنزلة. فهي ليست سوى كلمات حكمة، بمعنى أنها سامية ولكنها ليست سماويّة. كما أن كتاب النبيّ بأكمله قد وصف بأنّه ليس عملا فلسفيّا خالصا أو عملا أدبيا بحتاً، ولذا فإنه مكانته في الأدب الأمريكي هي محل غموض ولبس. وعلى الرّغم أنه انجليزيّ الصياغة إلا أنه عربيّ في فكرته ومنواله.

ويُعدّ كتاب "النبيّ" الذي أصدرته مؤسسة نشر يشار إليها بالبنان وهي شركة آلفريد نوبف Alfred A. Knopf في سبتمبر 1923، أيقونة أعمال جبران. وقد فرغ من كتابة معظمه في الفترة ما بين إبريل ومايو عام 1918، وأعطى هذه المخطوطة عنوانا مبدئيا هو "النّصائح". وصدرت الطبعة الأولى للكتاب في ألفي نسخة فقط، كان كلّ ما بيع منها لا يتعدى 1158 نسخة (في حين أن هناك مصادر تذكر أن الطبعة الأولى هذه قد صدرت في 1300 نسخة، بيعت كلّها في خلال شهر أو شهرين). وكان من دواعي دهشة مؤسسة النشر هذه أن الطلب على الكتاب تضاعف في العام الثاني، ثم حدثت نفس الظاهرة في العام الثالث. وبحلول عام 1935 بلغ عدد النسخ المباعة منه

إثني عشر ألفا. ناهيك عن أنه خلال السنوات الختامية للحرب العالمية الثانية صدرت من الكتاب طبعة خصصت للجنود نشرها ما كان يسمّى بمجلس الكتب في زمن الحرب Council on Books in Wartime ، وهو هيئة لم تكن تسعى إلى الرّبح. أما في سنوات ما بعد تلك الحرب فقد ناهزت مبيعات الكتاب 111,000 نسخة عام 1961، وقرابة الربع مليون نسخة عام 1964، وذلك طبقا لإحصائيات أوردتها مقالة في مجلة تايم الأمريكية في تتبع للظاهرة التي تحوّل معها كتاب "النبيّ" إلى ما يشبه فرقة من أتباع تقدّس كاتبه. واستمرّ رواج الكتاب إلى الحدّ الذي جعل منه أكثر الكتب مبيعا في القرن العشرين إذا ما استثنينا الكتاب المقدّس، كما ترجم الكتاب إلى ما يربو على أربعين لغة.

وفي وصف منه لتجربة كتابته لهذا الكتاب – وهو عمل ذو حجم متواضع (إذ لا يزيد عدد كلماته على عشرين ألفاً) وإن كان يضم بين دفّتيه أخلاقا إجتماعية سامية – كتب جبران إلى الأسقف أنطونيوس بشير يقول: "تعلمون أن هذا الكتاب الصغير هو جزء لا يتجزّأ من كياني، ولم أكتب أي فصل فيه تقريبا دون أن أعهد تحوّلا في أعماق نفسي". أما المعجبون بكتاب "النبيّ" فهم يتجاوبون مع ماحواه من حكم منيرة ويستحسنون منحاه في تناول الغيبيّات.

ومع ذلك فإن هناك بعدا دفينا لكتاب "النبيّ". إذ كان من رأي ميخائيل نعيمي، صديق جبران والمؤرخ النّاقد لحياته ، أن الكتاب نتاج لما كان يعتلج في نفس جبران بدرجة كبيرة. وهو رأي صائب بكل تأكيد، إذ أن المرء يندهش للتشابه بين صورة المصطفى وصورة جبران نفسه. وبالتحديد، يستطيع المرء أن يرى شخص جبران في المصطفى، ونيويورك في أورفاليس، وماري هاسكل في شخصية ألمطرا، أما الجزيرة الوطن فهي ليست سوى لبنان وطن جبران، وما كانت تلك السنوات الإثني عشر التي صرفها النبيّ في أورفاليس سوى السنوات الإثنى عشر التي قضاها جبران في نيويورك قبل نشر كتاب "النبيّ".

وعلى العموم فقد تناقضت الآراء بشأن كتاب "النبيّ". فبينما يرى نقّاد الكتاب من رافضيه أنه عمل مبتذل وتافه، هناك آخرون يرون درّة أعمال جبران هذه عميقة في أفكارها باعثة على السموّ في محتواها. فمثلا، نجد من ناحية من كتب في دورية استعراض لندن للكتب *London Review of Books* ، وهو الناقد روبرت إيروين Robert Irwin ، يسخر من قريحة جبران الشعرية قائلا: "لقد فضّل جبران، بوصفه نبيّ آخر الزمان، أن يقدّم الكتاب المقدّس بطبعة مقلّدة، طبعة حشيت بمفردات عتيقة وملئت بتراكيب عكسية للكلمات سعيا وراء البلاغة على حساب المضمون، مما جعل الكتاب أشبه بطبخة طهيت بشخم الخنزير يعافها الذائق." وعلى النقيض من هذا الرأي، نجد أن كل من بشروئي وجنكنز يكيلان المديح لكتاب النبيّ بوصفه "أهم عمل شعريّ نال عظيم الاحترام والتقدير في القرن العشرين"، وبوصفه "أوسع الكتب قراءة في هذا القرن".

هذا في حين أن ما لاقاه الكتاب من قبول عريض دائم الأمد لدى القاعدة الشعبية في أمريكا لم يتم أبدا تفسيره بما فيه الكفاية، ولكن هذا القبول على ما يبدو له علاقة ما بتعطّش الناس إلى معنى أعمق في الحياة، وهو تعطّش تسببت فيه الديانات التقليدية ومؤسساتها. فإذا ما وضعنا في الاعتبار التدنّي الشامل في أعداد من يأمّوا الكنائس ، وانحسار نفوذ الدين بوجه عام، فهل لنا أن نتساءل

عما إذا كان الاستحسان الذي لاقاه كتاب "النبي" قد جعل منه إنجيلا بديلا؟.

بل إن تشبيه الكتاب بأنه "إنجيل" يوحي بمجال أضيق مما جال فيه كتاب النبيّ، من حيث أنه ليس نصّا قاصرا على المسيحية، وإنما هو مزيج يجمع ما بين غيبيات المسيحية و الإسلام بمنحاه الصّوفي. أما من حيث المصطلح الدّيني، فلا يمكن اعتبار الكتاب إنجيلا اجتماعيا، فهو انجيل يخاطب الفرد ويحمل رسالة خلاص وعتق من جهل الإنسان بجوهر ذاته، لا خلاص من الخطيئة بالمعنى التقليدي في المسيحية. فهاهو جبران نفسه قد أوجز الرّسالة التي يحملها كتاب "النبيّ" بقوله: "إن الكتاب من أوله لآخره يفصح عن أمر واحد: "... أنت أعظم بكثير جدّا مما تدرك – فلا بأس إذن ولا ضير". وفي فصل "الجريمة والعقاب"، يتحدّث المصطفى عن "الذات النّورانية" (قاصدا بذلك الطبيعة العلوية للإنسان)، كما يتحدّث عما أسماه "المسخ" (أي الطبيعة السّفلية) عندما يطالعنا في هذا الفصل بقوله: "إن ذاتكم النّورانية لهي كالبحر المحيط ... بل هي كالشمس، ذاتكم النّورانية؛ ... ولكن هذه الذّات النورانية لا تقيم وحدها في كيانكم ... وما هو مسخ لا شكل له، يسير غافيا في الغمام، باحثا عن يقظة نفسه. (ص 40-41)[2] ويصف الإنسيّ بأنه جاهل ومفقّه في آن واحد، عندما يقول أن كل امرئ "ليس إلا شخصا واحدا يقف في السّحر بين ليل من ذاته الممسوخة ونهار من ذاته النّورانية". (ص 45) فهذا هو جبران في أشد لحظات شفافيته، حيث العملاق الذي بداخله هو الذّات النورانية، بينما يكون قزمه الدّاخلي هو المسخ، فهما يقفان كل منهما قبّالة الآخر في علاقة استقطابية تماما مثل النّهار والليل. وتصبح العلاقة ما بين المسخ والعملاق علاقة متراقية تقدّمية ومتطوّرة، مثل العلاقة بين شجرة البلّوط وجوزتها. ولكن هل النّفس النّورانية هي نفس ذات النفس الدّانية بعد أن نمت لأقصى درجات نموّها، أم أن النفس العالية هي مبدأ كونيّ بمعنى أنها نفس عالميّة سامية؟ وهذا التساؤل هو محل خلاف في آراء الباحثين، إلا أن الاستنتاج الثاني يبدو أرجح قبولا، ذلك لأنّه أكثر التعبيرات مبالغة عن مبدأ وحدة الوجود الذي يمثّل لبّ كتاب النبيّ وجوهره.

وفي حديثه الختاميّ المعنون ب "الوداع "يقول المصطفى: "إن في اتّحادكم بالإنسان الشامل انطلاقا يخرج بكم إلى الشمول. وما شاهدتكم وأحببتكم إلاّ حين شاهدته." (ص 94) فمفهوم "الإنسان الشامل" هو مفتاح فهم رسالة كتاب "النبيّ". فالمقصود بكلمة "الإنسان" هو الوعي. وكلما كان الإنسان أكثر شمولا كلما زاد وعيه وإدراكه الرّوحاني. والإنسان مستغرق في السّبات، جاهل وغافل عن حقيقة عليا (بما في ذلك كيانه السّامي) إلى أن يفيق من سباته بطلوع فجر الإدراك والمعرفة. والبذرة التي ينبت منها ذلك الوعي هو إدراك أن الإنسان أعظم بكثير من أن يكون مجرّد جسد، ذلك لأن الهيكل الجسماني لا يقدر أن يسع الرّوح اللاّمحدودة. تماما كما يشرح المصطفى عندما يقول: "إنكم لستم رهناء أجسادكم، ولا سجناء بيوتكم وحقولكم. فإن ذاتكم تسكن فوق الجبل، وتسري مع الرّيح." (ص 101) وفي كل صفحة آخرى من صفحات الكتاب تبدو فحوى الرّسالة أن الحب هو القوّة الباعثة على النموّ الروحيّ. وتتجلّى المحبة بكل عنفوانها في

---

[2] أرقام الصفحات الواردة هنا تشير إلى أرقامها وردت في الطبعات العربية الشهيرة لأعمال جبران كما هو مدرج في ثبت المراجع الوارد في نهاية هذا المقال

المحبّة التي تجيش ما بين رجل وإمرأة، ولكن ذلك لا يكون سوى بداية محيط رحيب من المحبّة. والمحبّة تورث الإتّحاد. أما تقاسم الوعي أو امتزاجه فهو عمل يحمل في طياته القدرة على الإنتشار والخلاص.

وفي نفس ذلك الحديث الختاميّ، "الوداع"، يقرّ النبيّ أن تعاليمه قد تكون "غامضة غائمة" عندما يقول: "فإن بدت كلماتي هذه غائمة فلا تسعوا إلى تبيانها." (ص 102) وهو غموض لم يخفى على النّقاد سيّما من يشعرون بأن كتاب "النبيّ" قد غالى البعض في تقييمه. ففي حديثه "عن العقل والعاطفة"، على سبيل المثال، يقول المصطفى أن على المرء أن يسكن في العقل ويموج في العاطفة تماما كما "إن روح الله تسكن في العقل، وروح الله تموج في العاطفة". وهنا قد يفهم المرء أن العاطفة انفعال وأن الإنفعال له قوّة محرّكة، وأن العقل متدبّر ومن ثم فهو ساكن، فما يثير الجدل هنا هو أن يوصف العقل بأنه "سكون" على أحسن تقدير. ولكن تبقى حقيقة في نهاية المطاف وهي أن هذه التعاريف ليست هي بيت القصيد، ذلك لأن كتاب "النبيّ" هو عمل إلهاميّ من الطراز الأول – بمعنى أن كاتبه لم يقصد منه أن يكون عملا واضحا من حيث السلوكيات، أو عملا ناصحا من حيث الفضائل، أو أن يكون وصفة سحرية لكل أمراض المجتمع.

4. كتاب "رمل وزَبَدْ"

لاعجب أن يكون كتاب جبران "رَمْلٌ وزَبَدْ" الذي نُشر عام 1926 بمثابة مجموعة من الحِكم والأمثال المأثورة، ذلك لأن جبران هو حاكي الحِكم والأمثال الحاذق. فالكتاب يحوي شذرات من خلاصة أقوال الحكمة المعقودة كاللآلئ على جِيد عمل قليل الصّفحات. وبعض هذه الأمثال صاغها في البداية كُتّاب آخرون باللغة العربية، ثم جاء جبران لينقلها إلى قُرّاء الإنجليزية. فمثلا يسوق جبران قولا سبقه فيه غيره[3] هو: "المحبة حجاب بين المُحب والمحبوب"[4].

ولكن على الرّغم من فتور النّقاد حيال كتاب "رمل وزَبَدْ" فإنه قد لاقى استحسانا كبيرا لدى جمهرة القرّاء في أمريكا.

ولقد حافظ جبران في هذا الكتاب على تقسيمه للنفس البشرية بأنها الذات السفلى والذّات العليا، بعبارات مثل: "ما أنتَ إلا شظية من ذاتك الكبرى" (ص 57)، وكذلك عبارة " ... أنتَ ... تنمو

---

[3] قول لأحد أئمة الشّيعة هو جعفر بن محمد الصادق، ورد في كتاب "الزيارة الجامعة الكبيرة" ومختلف شروحه، وسيلاحِظ من يقرأ ترجمة الدكتور ثروت عكاشة لهذا الكتاب أن هذه العبارة قد أوردها الدكتور عكاشة بصيغة أخرى هي: "الحب قناع بين عاشق ومعشوق"، ولكن الأصل الإنجليزي لجبران، وهو Love is the veil between lover and lover ، يفيد غير ذلك، إذ اختار جبران كلمة veil أي حجاب، أما القناع فهو mask، كما أن اللغة الإنجليزية ليست بثراء اللغة العربية ورقّتها ودقّتها في التعبير عن المشاعر الإنسانية، فلا يوجد في الإنجليزية، مثلا، سوى كلمة love للتعبير عن كل من "الحب" الذي هو علاقة خاصة في أغلب الحالات، و"المحبة" وهي كلمة تستخدم عادة لوصف علاقة لها صفة العمومية.

[4] وهناك أمثلة أخرى على نقل جبران من أقوال السابقين، منها قوله "قد تكون أسمى الفضائل في عالمنا أدناها في عالم آخر"، نجد جذورها في قول أحد أعلام الصّوفية الذي نقرأه في كتب الأخلاق، وهو "حسنات الأبرار سيئات المقرّبين".

مع كل ما ينمو وترتفع إلى ذاتك الكبرى" (ص 18). فالارتفاع نحو الذات الكبرى عند جبران هي عملية من توسيع مدارك المرء ورؤية المشهد الأكبر في بانوراما شاسعة لا تحدّها حدود الهويّات الضيقة، إذ يقول: "إذا سَمَوْتَ ذراعا فحسب عن التعصّب لجنسك ووطنك وذاتك كنت حقا صورة من ربّك". (ص 57). كما يحدّثنا في موضع آخر من نفس الكتاب عن "الذات الأخرى" على أنها الذات الكبرى قائلا: "ذاتك الأخرى دائمة الحزن من أجلك، غير أن ذاتك الأخرى قوامها الحزن، فلا بأس إذن ولا ضير." (ص 26) وهذا يعيد إلى الأذهان اختزال رسالة "كتاب النبيّ" التي أوردناها آنفا وهو: "... أنت أعظم بكثير جدّا مما تدرك – فلا بأس إذن ولا ضير". كما إن الفكرة هي هي لا تتغير وهي أن الله كامن بداخل كل إنسان على هيئة الذات الكبري.

ويختتم الكتاب بما قد يكون أكثر نصائح جبران الإنجليزية إرشادا وهو عبارة: "كل فكرة قيّدها لساني باللفظ، حُتّم عليّ أن أحررها بالعمل" (ص 61) فالعمل هنا يتبع الإدراك إذا ما حرّكته الإرادة. فالنيّة المجردة شيء خامل، كما أن العمل دونما إدراك وحِكمة هو بمثابة سفينة تفتقد الدّقّة.

والخلاصة هي أن من يطالع كتاب "رمل وزَبَدْ" يقف على شاطئ محيط من العظمة ويحدّق في بحر من الحكمة، ويستيقظ ويستنير بفجر المعرفة، ويستلهم من نسائم المحبة، ويرتفع كالطير، ويحلّق في جوّ من التغاضي الروحيّ في عالم خفيّ يعطي العالم المنظور مغزى وقصدا – إلا أنه لا مناص من أن يعود القارئ إلى قسوة حياته اليومية ويتلمّس السّبيل نحو ترجمة ما قرأه في الكتاب من حكمة وبصيرة إلى عمل.

5. كتاب يسوع (أوعيسى) ابن الإنسان

ظل جبران طوال عشرين عاما تخامره الرّغبة في أن يكتب عن حياة السيد المسيح. ولكن بعد أن دفع له الناشر ألفريد Knopf Alfred نوف مبلغ ألفي دولار كدفعة مقدّمة نظير هذا المشروع، ترك جبران العمل في تأليف كتاب "حديقة النبيّ"، لكي يكتب عملا يؤرّخ فيه لحياة المسيح، أسماه "يسوع ابن الإنسان *Jesus the Son of Man*" وابتدأ العمل فيه في نوفمبر 1926، لينشر الكتاب عام 1928، وزيّنت طبعته الأولى هذه ببعض من رسوم جبران الملوّنة. وكان حكم النّقاد فيه إيجابيا، وظل هذا الكتاب أكثر أعماله قراءة بعد كتاب "النبيّ".

وقد اختار للكتاب عنوانا طويلا هو "يسوع ابن الإنسان: كلماته وأعماله كما رواها ودوّنها معاصروه *Jesus, the Son of Man: His Words and His Deeds as Told and Recorded by Those Who Knew Him*". وحياة المسيح الخيالية هذه، والتي تتغنّى بها ألسنة عدد كبير ساقهم جبران من المدّاحين، هي أطول ما كتبه جبران بالإنجليزية. فهي حياة ليسوع تتسم بالخلاّقية وتشعّ منها القداسة كما جاءت على لسان ثمانية وسبعين من معاصريه، الحقيقي منهم والمتخيّل، أعداء وأصدقاء، أضف أليهم غرباء تكلموا عن بُعد من أوطان أخرى، مثل ذلك الفيلسوف الفارسي الذي كان من أتباع النبيّ زرادشت. والكتاب عبارة عن سلسلة من 'اسكتشات'تتكوّن منها هذه الصورة المتخيّلة ليسوع عندما يضعها القارئ إلى جانب بعضها البعض واحدة تلو الأخرى. وفي ختام

الكتاب يتحدث من أسماه جبران "رجل من لبنان بعد تسعة عشر قرنا" فيقول وُلِدت سبعاً ومُت سبعاً، أرى بهاء وجه مريم العذراء في مُحيّا الأمهات جميعا، ثم يتكلم عن مريم المجدلّية، ويهوذا الاسخريوطي (تلميذ المسيح الذي خانه وسلّمه للأعداء)، ويوحنا اللاهوتي (أحب تلاميذ المسيح إلى قلبه)، وسمعان بطرس (أول من آمن بالمسيح)، وكذلك عن قيافا وحنانيا (كاهني اليهود اللذين أفتيا بإعدامه) كشخصيات أساسية على مسرح هذه الدّراما الكونية المتكررة.

وقد كان لكتاب "حياة يسوع *Life of Jesus*" للكاتب الفرنسيّ إرنست رينان Ernest Renan (الذي نُشرت ترجمته الإنجليزية عام 1863) تأثير عظيم على الفكرة التي تكوّنت لدى جبران عن المسيح. كما يضيف كاتبيْ سيرة جبران، بشروئي Bushrui وجنكنز Jenkins، إلى ذلك الإنطباع وجود تأثير بهائي، إذ يقولان: "لقد كان القالب الذي أخذ عنه جبران تصويره الفريد للمسيح من إلهام لقاءاته بالزعيم البهائي عبد البهاء عام 1912، الذي رسم له صورة شخصية في مرسمه بنيويورك. وقد دفع هذا اللقاء جبران لأن يقول: "لقد رأيت للوهلة الأولى هيئة نبيلة بالدّرجة التي يجعلها مستودعاً للروح القدس". ولكن هذه الفرضية التي لم نقرأ عنها من قبل تظل محتاجة إلى أدلّة أكثر اكتمالا. فمع أن جبران كان بالقطع مفتونا بكتابات بهاء الله العربية وبشخصية عبد البهاء، إلا أنه لم يكن على إلمام كاف بالمضمون الشامل للتعاليم البهائية، ولذلك لا يمكن أن يقال عنه أنه أخذ عن هذه التعاليم بوجه عام. وبدلا من أن يكون عبد البهاء نموذجا فعليّا أخذ عنه جبران فكرة "يسوع ابن الإنسان"، يمكن القول بأن عبد البهاء كان بمثابة حضور إلهامي مباشر في ذهن جبران بينما كان يرسم هذه الصّورة التي يمكن أن يقال عنها أنها صورة دنيوية للسيد المسيح تماما كما هي صورة قدسيّة.

وما أخرجه جبران من خلال هذا الكتاب هو عبارة عن رواية إنجيلية مُرسَلة، إذ هي توليفة من خواطر تخيّلية غير مرتّبة نسبت إلى من عرفوا يسوع النّاصري وقابلوه – خواطر كوّنت خليطا انطباعيا من ذكريات تثير شغف القارئ، بل تنيره، إلا أنها ليست بالضرورة مادّة باعثة على التحوّل الأخلاقي والرّوحيّ الشامل.

وقد يثار سؤال لدى قارئ هذا الكتاب هو "هل يسوع الّذي تخيّله جبران هو فعلا نبيّ المسيحية؟" واضح أن الشخصيّة التي رسمها جبران هي شخصية قويمة شديدة المثالية معا وليست بالضرورة شخصية تفوّهت بأقوال غريبة كما قد يرى البعض. ولكن مما قد يثير الغرابة لدى القارئ هو أن جبران يشير، في فصل "يوحنا بن زبدي: عن أسماء يسوع المختلفة"، إلى زرادشت نبيّ الفرس على أنه تجسّد سابق ليسوع، مثله مثل (إله الإغريق) بروميثيوس Prometheus و (إله الفرس) ميترا Mithra . أضف إلى ذلك أن جبران لم يلتزم بالقصص المتداولة في الأناجيل كما هي بل أدخل عليها بعضاً من خياله ووسّع من نطاق أقوال يسوع، فمثلا يتناول قولا من الأقوال المأثورة ويزيده نطاقا. فمثلا نجد في فصل "سمعان الذي يقال له بطرس: عندما دعي هو وأخوه ليتبعا يسوع"، أن سمعان يخاطب بطرس وشقيقه أندراوس على ضفاف بحر الجليل قائلا: "فلتتبعاني إلى شاطئ البحر الأعظم، وسأجعلكما صائدي لبني الإنسان، ولن تفرغ لكما شبكة أبداً." وللقارئ أن يتذكّر أن "البحر الأعظم" هو مصطلح جبرانيّ مفضل يرمز إلى الفكرة الصّوفية عن الذات

الكبرى، أو "الإنسان الكامل".

أما أكثر مقالات جبران التنويرية توسّعا بأزيد مما أخذه وحوّره من أقوال يسوع فنجدها في فصل "متى: خطبة الجبل"، وهو فصل يزيد جبران فيه من حلاوة بيان السيد المسيح وأمثاله وغيرها من التعاليم. ويُختتم هذا الفصل بنسخة جبران من "صلاة الرّب" (التي تستهل بعبارة "أبانا الذي في السموات" فجعلها جبران تبدا بعبارة "رب العالمين، رب السموات والأرضين"). وأحيانا ما تكون هذه التحاوير أو الإضافات على هيئة كلمة واحدة كما جاء في وصف جبران لما يسمّيه بعض العلماء "صرخة يسوع من الإهمال"، إي عدم تدخّل العناية الإلهية لتخلّصه من آلامه وهو على الصّليب، ففي فصل "باراباس: كلمات يسوع الأخيرة"، يصيح يسوع وهو ما يزال حيّا على الصّليب "يا أبتاه لم تركتنا؟"[5]، مستبدلا ضمير المفرد بضمير الجمع. (ص 214). كما نجد أيضا أن بعض الأقوال التي نسبها جبران إلى يسوع ليست متعارفٌ عليها بالمرّة، كقوله في فصل "جيمس شقيق الرّب: العشاء الأخير"[6] "إن السماء والأرض، والجحيم أيضا، هي من صنع الإنسان". (ص 220). وبهذا القول سحب جبران البساط من تحت مملكة الشيطان الغيبية، وصرف الإهتمام عنها مرة أخرى نحو أصل الشرّ الحقيقي – ألا وهو الإنسان.

وأخيرا سيلاحظ القارئ أن الرّواية الحياتية ليسوع كما كتبها جبران ليست بتسلسل تاريخ أحداثها، بل أحيانا ما تخرج تماما عن هذه القاعدة، فمثلا جاء فصل "العشاء الأخير" (وهو آخر مناسبة جلس فيها السيد المسيح مع تلاميذه قبل القبض عليه والحكم عليه بالإعدام) تاليا لوصف الصّلب في الفصل الذي ذكرناه آنفا، كما سنجد أن السّرد الرّوائي يتخلّله من آن لآخر قصائد شعرية، وكلها ترانيم في مدح يسوع. وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على كتاب "يسوع ابن الإنسان" نجده مديحا بليغا لنبيّ النّاصرة صيغ بأسلوب فنّي أصيل.

6. أرباب الأرض

بوصفه عمل كامل نشر عام 1931، كان كتاب "أرباب الأرض" خاتمة لأعمال جبران الأدبية التي نشرت في حياته ذلك لأنه وُضع بين يدي القرّاء قبل وفاة جبران بقليل. وتحتفظ مكتبة برينستون من بين "مجموعة شهادي" الشهيرة بأول ثمانية وعشرين صفحة من مخطوط الكتاب (أي ما يعادل الثلثين) وقد ازدانت هذه الصفحات بالعديد من اللوحات الفخيمة رسمها جبران بنفسه.

والكتاب عبارة عن حوار بين ثلاثة أطراف، يتّخذ أسلوب النثر المرسل، يدور بين ثلاثة عمالقة ولدوا من تراب الأرض ويجري حول ما يعدّ تأملاً في الحب. وفي نقطة من هذا الحوار يفشي

---

[5] يلاحظ من يقرأ هذا الفصل بترجمة الدكتور ثروت عكاشة أنه على الرغم من أن الأصل الإنجليزيّ لهذه الصرخة كما بالغ فيها جبران بصيغة الجمع هو "Father, why hast Thou forsaken us" إلا أن الدكتور ثروت عكاشة آثر أن ينقلها كما وردت في إنجيل متّى: "إلهي إلهي، لماذا تركتني؟"

[6] اختار الدكتور ثروت عكاشة عنوانا مختلفا لهذا الفصل في ترجمته إذ أسماه "يعقوب: العشاء الأخير" بدلا من العنوان الأصلي "James the Brother of the Lord: The Last Supper"

ثانيهم "السرّ" المباح الذي يتّخد من رسالة جبران المترابطة موضع القلب، إذ يقول: "أجل، ففي السويداء من نفسك يرقد 'المُخَلِّص' غافيا، وفي غفوته يبصر ما لا تقوى عينُك اليَقْظى أن تبصره، ولعمري هذا هو سرّ وجودنا." (ص 31) أي أن الذات العظمي، ذلك العملاق الرّوحيّ، روح المسيح، تقبع في الدّاخل. وبداية الخلاص هو إيقاظ هذا المارد الغافي.

وفي قمة حوار الآلهة الثلاث، ينبري ثالثهم قائلا: "الحب ربّنا وسيّدنا". (ص) فالحب عنده هو بمثابة الله على الأرض. وفيما عدا ذلك فإن الحوار ملتوي وساذج، دون أن يعطي تسلسلا فكريّا واضحا، مع خلوّه من الإيقاع. ولربما يكون كتاب أرباب الأرض أقل أعمال جبران الإنجليزية مكانة. وكان ظهوره بمثابة قوس هبوط بالمقارنة بجودة ما أينعته قريحة كاتبه من أعمال آخرى. ولكن لحسن الحظ، تبعه في العام التالي (1932) نَشْر كتاب "التائه" الذي يمتاز بصدق مبناه، ويعتبر عملاً لائقا لتخليد ذكرى صاحبه.

7. كتاب "التّائه"

أعطى جبران هذا الكتاب عنوان "التائه: أمثاله وأقواله" وانتهى من تأليفه خلال الأسابيع الثلاثة الختامية لحياته. ولكن الأصل الخطّي للكتاب لا وجود له، إذ عمدت بربارة يانج إلى التخلّص منه بعد أن راجعت الكتاب وطبعته عام 1932. و "التائه" هو في المقام الأول كتاب أمثال وحكايات رويت على لسان مسافر جوّال التقى به شخص آخر بالمصادفة ودعاه إلى داره. وهناك يسلّي الضيف مضيفه هو وعائلته بقصص تربويّة تحوى العديد من الفضائل. وبعض هذه الحكايات هي بمثابة تعليقات إجتماعية في الوقت نفسه. فمن بين الأمثال والأشعار الإثنان والخمسون التي حوتها دفّتي هذا الكتاب، نجد في حكاية "وميض البرق" على سبيل المثال أن إمرأة غير مسيحية دخلت كنيسة في يوم عاصف وسألت الأسقف هل لها أن تخلص من نار الجحيم، فيجيبها الأسقف أنه لا من خلاص إلاّ لأولئك الذين تعمّدوا بالماء والرّوح. وفيما هو يتكلّم انقضّت من السماء صاعقة على الكنيسة مشعلة النّار فيها، فأقبل أهل المدينة مسرعين وخلّصوا المرأة، بينما احترق الأسقف وصار طعماً للنار! وهذا المثل العجيب يثير التهكّم على قسيس يخبر هذه المرأة أن مآلها نار الجحيم، بينما كانت نهايته هو أن تلتهمه النار، فإذ بها تخلص وهو يهلك. وما قصده جبران بهذه الأمثولة هو أن الخلاص العقائديّ هو نقيض الخلاص الحقيقيّ.

وإذا ما استعرضنا بعض أمثال الكتاب وحكاياته، نجد أن النبيّ "شاريا Sharia" يظهر في حكاية "النبيّ والغلام"، حيث يستخدم جبران هذا المصطلح مرّة أخرى ليوميء به إلى الشريعة الإسلامية. أما في حكاية "المَلك"، فإنه يتكلم عما أسماه مملكة صادق، في إشارة إلى الإمام جعفر الصّادق (المتوفّي عام 765 ميلادية)، وهو عَلَم من أعلام الصوفية يجلّه كلٍ من أهل سنّة الإسلام وشيعته ويعتبره كافة أطياف الشّيعة سادس أئمّتهم. وفي "الهدايا الثلاث" يكتب جبران عن مسقط رأسه قرية "بشرّى". وفي أمثولة "المسألة" يلتقى إثنان من قدامى الفلاسفة على سفح جبل من جبال لبنان يماثل ذلك الجبل القريب من موطن جبران. وهناك الكثير من التشخيص في جنبات الحكايات كما في حكاية "الملابس" حيث يتحاور الجمال مع القبح، أو في حكاية "النسر والقبّرة (أي العصفورة)"، وهي حكاية تدخل فيها سلحفاة ناطقة في حوار مع هذين الطائرين. كما أن

هناك حديث على لسان قواقع وكلاب وأشجار وعصافير وحشائش، بل إن جبران جعل الظلّ يتكلّم أيضا. وكما هو الحال مع عنوان القصّة الختامية في الكتاب "التّائه الآخر"، يمكن اعتبار هذا العمل على أنه أحاديث متفرّقة عن أسرار الحياة والموت، يُترك للقارئ فيها أن يستخلص الحكمة من كل أقصوصة وأمثولة.

فهم أعمال جبران الإنجليزية على ضوء أعماله العربية

قد تعطينا أعمال جبران التي انتجها في بدء حياته الأدبية باللغة العربية مفتاحا لفهم المسائل البارزة في أعماله الإنجليزية. وإنتاج جبران الأدبيّ بالعربية في مستهل حياته يتكون من ثمانية أعمال منها ستة كتب هي:

- الموسيقى 1905 (وهو ما لايعد كتابا في الحقيقة إذ يتكون من إحدى عشرة صفحة لاغير)
- عرائس المروج 1906
- الأرواح المتمرّدة 1908
- الأجنحة المتكسّرة 1912
- دمعة وابتسامة 1914
- المواكب 1919

ويضاف إلى هذه الكتب الستّ ثلاث مجموعات تضمت أعمالا نشرت في أعوام سابقة لطبعها هي العواصف (1920) والبدائع والطرائف (1923) والسنابل (1929).

وقد عَمَد جبران في البداية للتعبير عن أفكاره بالعربية لاستخدام الرّواية القصيرة، إلا أنه وبمرور الأيام استخدم أدوات أدبية من قبيل الأمثال والأقوال المأثورة والمجاز، والنوادر القصيرة، كتبها شعراً ونثراً– فأصبحت جميعها من العلامات المميزة لأسلوبه عندما شرع في الكتابة باللغة الإنجليزية.

وكتب جبران في رسالة بعث بها عام 1909 إلى ابن عمه "نخلة": "أعلم أن المبادئ التي أبنى عليها كتاباتي هي أصداء لما يعتلج في نفوس غالبية أهل العالم." (مترجما عما جاء بكتاب بشروئي وجنكنز، ص 87). وهي عبارة نجد خير تجسيد لها في قصة "خليل الكافر" – وهي إحدى القصص القصيرة الأربعة التي احتواها كتاب الأرواح المتمرّدة (ويلاحظ أن ثلاثة فقط من هذه القصص قد تمت ترجمتها إلى الإنجليزية، وهي هذه القصة مضافا إليها "السيدة وردة هاني"، و"صراخ القبور". أي لم تتم ترجمة قصة رابعة هي "مضجع العروس").

ففي قصة "خليل الكافر" هذه، يتكلم جبران بكل شفافية على لسان شخصية "خليل" الذي جعل منه محور القصة، فيتخيّل نفسه فتى من الأرياف يتحدّى أميرا جشعا هو "الشيخ عباس"، ومعه الكنيسة المارونية الفاسدة. وفي الفصل الثالث من هذه القصّة يقدّم خليل نفسه بالإسم ويحكي كيف أنه قضى زمنا في أحد الأديرة حيث أسماه الرّهبان "الأخ مبارك"، دون أن يعاملوه في الحقيقة معاملة الأخ. فكانوا يتنعّمون بالمآكل الشهية ويتلذذون بالخمور الطيّبة، بينما لم يتركوا لخليل ما

يأكله سوى البقول المجفّفة والماء. كما كانوا يتضجّعون على الأسرّة الناعمة بينما جعلوا الفتى خليل الشاب ينام على فراش حجريّ في غرفة مظلمة باردة بجوار زريبة الخنازير.

ثم يحكي خليل أنه وقف للرهبان الجالسين في حديقة الدّير ذات يوم متجاسرا منتقدا إفسادهم لتعاليم السيد المسيح بانزوائهم عن الناس والتلذذ بالفواكه الآتية من عمل الآخرين في طفيلية غير مقدّسة. ويمضي خليل قائلا: لقد بعث يسوع بهؤلاء الرهبان كالأغنام بين الذئاب – فهاهم صاروا ينذرون العفّة وقلوبهم مفعمة بالشهوات، ويتظاهرون بالترفّع عن العالميات وهم أكثر الناس طمعاً. وهنا وصم الرّهبان خليل بالكفر وجلدوه وألقوا به في غرفة رطبة مظلمة أربعين يوما وليلة. ويصف خليل الكافر في الجزء الخامس من روايته كيف يتآمر نبلاء لبنان وقساوستها لكي يستغلوا المُزارع الذي يفلح الأرض ويجني المحصول لا لشيء سوى أن يتّقى سيف الأمير ولعنة القسيس. ثم نطالع فيما تلى من القصّة أن الشيخ عبّاس تآمر مع "الخوري إلياس" على عقاب خليل على لجوئه إلى دار "راشيل" أرملة "سمعان الرّامي". فيقبض على خليل في الفصل السادس ويحضره إلى قصر الشّيخ. وفي تلك الدار أمام جم غفير من النظّارة، كما نقرأ في الفصل السابع، يجيب خليل على أسئلة مستجوبيه الشيخ عباس والخوري إلياس، قائلا أن أرواح الفلاحين باتت في قبضة القساوسة بينما وقعت أجسامهم في فك الأمراء. وإذ كسب خليل القرويين إلى صفّه بقوّة حجّته وبلاغته، (أداروا ظهورهم للشيخ والخوريّ، وساروا خلف خليل نحو كنيسة القرية، وما أن بلغوا الكنيسة حتى رفع خليل يداه ليناجي "الحرّية" (ص 151) واصفا إياها بأنها "إبنة أثينا" و "أخت رومة"، و "رفيقة موسى"، و "حبيبة محمد"، و "عروس يسوع". (ص 155)

ولهذه القصّة نهاية سعيدة، إذ تحكي أنه بعد مضي نصف قرن من الزمان استيقظ أهل لبنان، وتمضي الحكاية لتذكر أن مسافرا بعد خمسين سنة كان يمضي في طريقه نحو أرز لبنان المقدّس، فأدهشه مشهد الفلاحين الهانئين الساكنين بيوتا جميلة تكتنفها الحقول الخصبة والحدائق النّضرة. وأن قصر الشيخ عباس قد تحول منذ ذلك التاريخ إلى حجارة متقوّضة وجدران مهدومة. أما عن خليل فقد سطر الله تاريخ حياته بأحرف من شعاع لا تمحوها الأيام والليالي على صفحات قلوب الشّعب.

وبينما يدور مسرح أحداث "عرائس الوادي" و "الأرواح المتمرّدة" و "الأجنحة المتكسّرة" في لبنان، إلا أن هذه الأعمال الثلاث قد هيّأت بدورها المشهد لما جادت به قريحة جبران باللغة الإنجليزية بعد ذلك. وكان ظهور كتاب "المجنون" هو بداية تحوّله إلى التأليف بالإنجليزية واتّخاذه لها كلغة عمومية لأغراضه الأدبية. وبدأ لبنان يتوارى من ساحة أمامية جرت عليها أعمال جبران ليصبح ساحتها الخلفية، مع احتفاظه بمكانتها كقاعدة بنيت عليها توجّهات جبران الأساسية.

وقد يوصف جبران، من حيث أعماله الأولى باللغة العربية، بأنه كان مصلحا اجتماعيا يستخدم نوعا من الرؤية الإستشرافية. أما من حيث أعماله الإنجليزية فهو أقرب ما يكون إلى المرشد الرّوحي الذي يقدم النصائح التهذيبية الباعثة على التحوّل الفردي. بيد أنه وعلى الرّغم من تمكنه في هذين المجالين فإن لجبران أوجه قصور جدّية لابد من الإعتراف بها. وننوّه هنا عما توصّل إليه جون وولبريدج John Walbridge الذي هو شخصية مرجعيّة فيما يختص بأعمال جبران،

وهو الذي قام أيضا بترجمة عملين من أعماله العربية عام 1998 وهما "العاصفة" و "المحبوب"، إذ قام وولبريدج بأبرز التحليلات النقدية إقناعا حول مثالب جبران الأدبية. فقد لاحظ جبران لم يكن بارعا في فن الرّواية القصصية وأن "قيثارته القصصية كانت قليلة الأوتار" (من مقالة لوولبريدج كتبها عام 2001 منشورة على الإنترنت). ويمضي وولبريدج ليقول أن جبران كانت تنقصه مهارات خلق الشخصيّات الرّوائية ببراعة أدبية عالية أو إنتاج حبكة روائية متشابكة. كما أن كل ما كان يقوله جبران كان في غاية الجدّية دون أدني شائبة من فكاهة أو تهكّم، سواء كتابة أو رسما، وبذا كان مجاله التعبيريّ محاطا بجدران قلّصت مساحته بشكل كبير. ومن رأي وولبريدج أيضا أن أسلوب جبران النثريّ باللغة الإنجليزية متكلّفٌ، وأن أفكاره تجنح إلى الصّوفية أكثر من اللازم أو أنها مجرّد أفكار معادة. ويقول أن جماليّاته اللّغوية مستمدّة من اللغة العربيّة وليست من روافد أمريكية. وأن كل عمل من أعماله الأدبية، مثلها في ذلك مثل كل لوحة رسمها، يقدّم مشهدا واحدا بعينه. ويعيب وولبريدج على جبران أيضا أنه لا يمتلك روح التندّر[7] ناهيك عن القدرة على التحليل المنطقيّ. ويرى أن كافة لوحات جبران وقصصه تبدو وكأنها أحلام أثيرية. وأن كل ما برع فيه جبران سواء أكان رسما أو نثرا أو قصّة مصوّرة يخاطب الأفئدة دون العقول. وأن ما يخرجه بالرّسم أو بالكتابة يضعه في صورة زاهية لكنها تبقى صورة ثابتة لا حركة فيها دون أن يفصح مبدعها عما يربطها بالانفعال أو التجربة. ولا يفوت وؤلبريدج القول بأن أعمال جبران تنتمي إلى المدرسة التأثيرية.

ومن رأي هذا النّاقد أيضا أنه رغم أن القارئ قد يقدّر أن في جبران زّخم غير عاديّ بالنظر إلى جدّيته الأخلاقية فيما يتعلق بمختلف نواحي الحياة، إلا أن المرء لا يجدر به أن يتوقع من جبران أن يأتي بنصائح ناجعة لعلاج المشاكل الحياتية، أو تعاليم إصلاحية تعيد ترتيب الأوضاع المجتمعية، أو سلوكيات مسبّبة، أو لاهوت عقلاني، أو عمق في المفهوم، أو فلسفة مترابطة. وأن جبران يميل إلى التعبير عن آرائه الأخلاقية والرّوحية عن طريق مقابلة الشيء بنقيضه، فهو يتكلم عن الأرياف برومانسية بينما يشيطن المدن. ويشير إلى المجتمع والدين بوصفهما أنظمة قمعية، بينما يتكلم عن الطبيعة والمحبة على أنهما أعظم ما ينفع الإنسان. (وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من الأدباء من أدلوا دلوهم بالحديث عن الثنائية التي لا تفارق أعمال جبران من قبيل الحياة والموت، الخير والشرّ، المحبّة والكراهية). نعود إلى وولبريدج، الذي يلفت النظر إلى أن آراء جبران لا تمثل تعاليما يمكن تطبيقها في الحياة العملية، إذ لا يمكننا أن نهجر المدن لنعيش كالناسكين على حافة وادي قديشة ، أو نهرب جميعنا من المجتمع البيروتيّ كلّه ويسكن كل زوجين منا في كوخ من الأكواخ الشّاعرية التي تطلّ على المدينة.

فما هي إذن مساهمات جبران على ضوء كل ذلك؟ لو نظرنا إلى العالم العربيّ لوجدنا أن تأثير جبران الأدبيّ كان عميقا ونافذا في آن واحد. ومن سمات ما أصبح يعرف "بالأسلوب الجبرانيّ"

---

[7] ما قصده الناقد هنا هو ironic detachment وهو أسلوب في الحوار القصصيّ يتّبعه الكتّاب عادة على لسان أبطال رواياتهم بجعل البطل يتوقّف عن مواصلة الحوار الجدّي مع الغريم ويلجأ إلى التندّر أو التهكّم علي ذلك الغريم كنوع من الترفّع عن الحوار معه إظهارا لتفاهته أو لإحراجه أمام السامعين.

نعدد إيقاعاته السّاحرة التسارع، ودقّات طبول تعاويذه وترديداته، وسحر أسلوبه الشّعريّ المستحدث، وانتقائه لمفرداته بكل عناية وابتكار، وتجرُّئه على هجر قوالب الشعر العربيّ العقيمة، وقوّة إيحاءاته التعبيرية وبداهتها العاطفية، واعتماده عند التشبيه على "الكلمات الثمينة" من قبيل الجمال والحب والقوة والعدل، واستخدامه للمشاهد الإنجيلية في مبناه القصصي بما يكسب رواياته معنى وسنداً. والتأثير النافذ إلى أعماق النفوس الذي تحدثه تشبيهاته، مثل استخدامه للقفص رمزا للطغيان، والغابة رمزا للملاذ والحرية والتجديد والخلود، والعاصفة رمزا للهدم والتجديد، والضباب أو الغمام رمزا للغموض والخلود أو كناية عمّا يخفي الحقيقة، والصبيّ رمزا للنجابة والتوازن، والنهر رمزا لمجرى الحياة الإنسانية، والبحر رمزا للروح السامية أو للذات العليا، والعصفور رمزا لبحث الرّوح عمّا هو إلهيّ، والمرآة رمزا للتفكير والتدبّر، والليل رمزا للجهل الباعث على السّبات، والفجر رمزا لليقظة الرّوحية.

وكل هذه السّمات تنسحب أيضا على أعمال جبران الإنجليزية التي يتميّز أسلوبها بنبض رومانسيّ، وبالتمرّد على الأنماط الأدبية والقوالب الإنشائية، وبالصّور التأثيرية التي تتصف بالقوّة الإيحائية التي تورث السموّ العاطفي. ويأتي على رأس "الازمات" جبران الفكرية تقديسه للحب، وبحثه عن غوامض الطبيعة من منظور وحدة الكون، ورفضه للفساد الدينيّ والسياسي، وعشقه للحرّية، وإيمانه بالإخاء البشريّ.

مكانة خليل جبران وأيقونته الأدبية كتاب "النبيّ"

لا تزال مكانة جبران ككاتب أمريكي محلّ تساؤل، حتى بعد أن أعلن إتحاد علوم الفضاء العالمي في التاسع من يوليو عام 2009 عن موافقته الرّسمية على إطلاق إسم جبران خليل على فوّهة بركانية على سطح كوكب عطارد يبلغ قطرها مائة كيلومتر، وذلك بفضل المسعى الحميد لباحثة تحضّر رسالة الدكتوراة بقسم علم الفلك بجامعة ماريلاند الأمريكية، وهي "نيللي معوّض". وقد شاركها في هذا المسعى رئيس كرسيّ "خليل جبران للقيم الإنسانية والسلام" الدكتور سهيل بشروئي بنفس الجامعة. وبجانب وجود فوّهة بركانية على كوكب عطارد تحمل اسم جبران، فإننا نتساءل: فأين إذن هي تلك الفوّهة البركانية الجبرانية على سطح النقد الأدبيّ الأمريكي؟ ولماذا يبقى جبران "خارج الخارطة" بشكل كبير من حيث الإقرار بأهمية كتاباته من قِبل هؤلاء النقّاد.

وسواء أكان كتاب النبيّ عملا أمريكيا كلاسيكيا، وسواء أقرّ النّقاد لجبران نفسه بكونه كاتبا أمريكيا ذا حيثية، فإن تراث جبران يسمو على نفس هذا التصنيف (أي كونه كاتب أمريكي جاد بأعمال أدبية أمريكية). ذلك لأن مكانة كتاب النبيّ تظلّ خارج هذه التقسيمات المرجعية التقليدية. فهو عمل يستعصى على التصنيف. إلا أن معيار وصف كاتب من الكتاب بأنه كاتب أمريكي عظيم من الجائز أن يكون كتابته لعمل عالميّ في جودته مثار قبول عالمي دائم، وذلك بصرف النّظر عن كونه عملا أمريكيا أو غير أمريكيّ من حيث المضمون. وإذا ما كان كتاب "النبي" معترفا به بالفعل ضمن الأعمال الأدبية العالمية، فلا أيضا بد لمَن أبدعه أن يُعتبر بكل تأكيد منتميا لزمرة أعلام الأدب الأمريكي.

ولكن بصرف النظر عن قبول نقاد الأدب الأمريكي لجبران وأيقونته الأدبية هذه في نهاية المطاف أو رفضهما، فهناك مسألة تتخطى هذه النقطة بكثير، وهي أهمية جبران في القرن الواحد والعشرين. فمن يروّجون لأهمّيته اليوم لا يفعلون ذلك من أجل شخص جبران بل من أجل ما يمثّله، فأهمّيته تكمن في رسالة الوفاق والسلام والإخاء التي نادى بها. والقيم التي يمجّدها هؤلاء وغيرهم في جبران وهي الكيفية التي مثّل بها عناق الشرق والغرب. فذات جبران العظمي، كما كانت عليه، هي مربط الفرس – أي أن ما يعوّل عليه هو النموذج الذي مثّله جبران وليس جبران نفسه.

وفي حديث ألقي في ديسمبر عام 1995 احتفالا بالذكرى المئوية لقدوم جبران إلى إمريكا تحدّث سهيل بشروئي عن أهمية أعمال جبران وأفكاره لهذا العصر، منوّها عن التّقدير الذي يلقاه جبران على صعيدين، أولهما لدى الدّوائر الأكاديمية والرّسمية في الولايات المتحدة – معطيا لذلك مثالين هما تأسيس جامعة مريلاند لكرسي خليل جبران بالجامعة، وإطلاق إسم خليل جبران على حديقة تذكارية بواشنطن العاصمة. وثانيهما هو ذلك التقدير الذي يتخطّى حدود الولايات المتّحدة، ذلك لأن جبران يحتلّ مكانة مميّزة بين عظماء أدباء العالم بالنظر إلى الجاذبية التي يتمتّع بها كتابه "النبيّ" على مستوى العالم. وأضاف بشروئي أن مكانة جبران وأهميته تزدادان مع مرور الزمن بالنظر إلى أن رسالته لا تزال تحتفظ بفاعليّتها ودلالتها حتى يومنا هذا.[8] واستطرد بشروئي في حديثه هذا قائلا: إن تركيز أعمال جبران على ما يشفي العلل الإنسانية، وعلى ما هو نافع للعموم وطبيعي وخالد، وعلى ما يتعدّى حدود الزمن يمثل تأكيدا قويّا على الثّقة في الروح الإنساني. كما قال إن إسم جبران، أكثر من اسم أي كاتب آخر معاصر، هو إسم مرادف للسلام والقيم الروحية والتفاهم بين دول العالم وشعوبه.

والخلاصة هي إن أعمال جبران تنفخ روح المعاني القدسيّة في جسد الشّواغل الدّنيوية الصّرفة عن طريق السموّ بالهوية الشخصية نحو "الذات العظمى" التي هي العالم بأسره. بل إن أهم عنصر في أعمال جبران من أجل هذا العصر هى أنها تنقل الوحدة الروحية الجوهرية للإسلام والمسيحية وسائر الأديان. ففي أمثولته "الحرب والأمم الصغيرة" (وهو الفصل الذي يسبقه فصل "الذات العظمي" في كتاب "السّابق")، تتجسد رسالة جبران الإجتماعية في كلمات نعجة لحَمَلها (الذي رمز به جبران إلى الأمم الصّغيرة) إذ كان نسران (قصد بهما الأمم القويّة المسيطرة) ينويان التهام الخروف يتعاركان فوقهما في السّماء فقالت: "صلّ يا صغيري، صلّ في قلبك إلى الله لكي يرسل سلاماً إلى أخويك المجنّحين" (ص 37)

وفي مضمار التخيّل الكوني، عمد جبران إلى وضع "الذات العظمي" للفرد في محلّ الهويّة الجماعية الكبرى، لا للطبيعة فحسب بل للمجتمع نفسه. ومثلما كان يفعل جبران عندما يرسم لوحاته بانتقاء الألوان من "باليتة الرّسّم"، فقد عمد في كافة أعماله، الإنجليزيّ منها والعربيّ،

---

8 النص الكامل لهذا الحديث منشور على موقع "الحوار" على الرابط التالي

http://www.alhewar.com/Gibran.html

على استخدام "باليتّة" إنشائية ذخرت بتشبيهات طبيعية ومكانية وموقفيّة لإعطاء فكرة عن "ذات" داخلية، مكنونة، متحرّرة، قوية، روحية، تصبو إلى الرّحابة – ذات لديها حنوّ على الغير. وقد خالف جبران في تصويره لهذه "الذات العظمي" منهج الفيلسوف الأديب رالف والدو إيمرسون Emerson الذي جعل منها ذاتا تفنى وجوديا في ذات فوقيّة واحدة هائلة تخلو من أي ملامح. أما جبران فقد جعل عظمة "الذات العظمى" تكمن في اتحادها مع زمرة غيرها من النّفوس وليس بظهورها في ثوب هذه النّفوس. فالذات العظمي عند جبران ليست تلك الذات الفوقية الهلامية التي يصعب التعرّف على جذورها، وإنما هي من مفهومه، "الذات الأشمل" التي تحقق نفسها في تناغمها تناغم الجزء مع الكل، إذ هي تقترب أكثر فأكثر من الإمتزاج مع الأسرة الإنسانية أو مع "العالم".

أما نداء جبران بالوئام وبتحقيق "الذات العظمي" فإنه لم يقصد به الحاجة إلى تفاهم مسيحيّ إسلاميّ فحسب (وهو غاية تبدو ملائمة جدّا في عالم اليوم) وإنما كان نابعا من علمه بضرورة تسامح وتفاهم ديني يضم كافة الأديان والشعوب. أما عن شِعر جبران وأفكاره فإنها، كما قال الباحث "عرفان شهيد"، قد صمدت لإختبار الزمن ولأشدّ النقّاد انتقادا.

ومع ذلك، وبالرغم من أن كتاب "النبيّ" قد بيعت منه عشرة ملايين نسخة، طبقا لأحد التقديرات، متفوّقا بذلك في رقم مبيعاته على كافة شعراء أمريكا من وايتمان حتى إليوت، فإن المؤسسة الأدبية الأمريكية لم تعط هذا الأديب حقّه من الاعتراف والتقدير، ولم تدرج إسمه في كتالوج الأدب الأمريكي. بل إن جامعات ما يعرف ب "جامعات رابطة اللبلاب Ivy League Universities" من أمثال هارفارد، وييل، وبرينستون لا يدرّسون شيئا عن جبران وأعماله سواء في أقسام الأدب الإنجليزي أو الأدب المقارن. ولم يحدث إلا في السنوات الآخيرة أن أصبح جبران وأعماله مادّة تدرّس في جامعة، إلا أن هذا حدث في جامعة لا تنتمي إلى هذه الرّابطة وهي جامعة ميريلاند، وعلى يد البروفيسور سهيل بشروئي. لقد صمد كتاب "النبيّ" لاختبار الزّمن بوصفه عملا صامدا. فلا يمكن أن يخطئ عشرة مليون قارئ عن بكرة أبيهم. ورغم ذلك فإن هذا الكتاب قد فشل في تحقيق المعايير التي اشترطها النّقاد لدخوله موسوعة الأدب الأمريكي. وعلى الرّغم من أنه كتاب قد احتل مكانته في الأدب العالميّ، إلا أن مؤلّفه لا يَظهر له إسم ولا رسم في المجموعات المختارة للأدب الأمريكي، بما في تلك المجموعات المعروفة بتنوّعها الثّقافي مثل مجموعة هيث للأدب الأمريكي *The Heath Anthology of American Literature*، إذ تخلو هذه المجموعة حتى من سطر واحد عن جبران وأعماله. وهذا التجاهل النّقدي لمبدع أكثر الكتب الأمريكية مبيعا (فيما خلا الكتاب المقدّس) تفصح عمّا هو أكبر بكثير من أسباب تهميش كتاب "النبيّ" في تاريخ الأدب الأمريكي: فمنشأ هذا التجاهل ليس هو عدم الإكتراث وإنما هو نوع من أنواع التبرؤ من شيء فريد بدرجة منقطعة النظير في التراث الأدبي الأمريكي – تبرّؤ يؤدّي تماما إلى عكس ما قصده أصحابه، فهو يثير تساؤلات جادّة عن كيفية إخفاق النقّاد في الاعتراف بعظمته وعليهم تبرير ذلك في مواجهة استحسان بهذا القدر من الضخامة من جانب القرّاء. ومن سلامة المنطق إذن، وبعد طول الأمد، أن تدرج رائعة جبران، أي كتاب "النبي"، في قائمة الأدب الأمريكيّ المعترف به.

ونذكر هنا قول السيد المسيح أن "النبيّ" لا يكون بلا كرامة إلا في بلده. ولربّما قد حان الوقت لما هو عكس ذلك.

مراجع المقالة

القسم الأول
مراجع مختارة من أعمال جبران

أولا – أعماله باللغة الإنحليزية تليها ترجماتها العربية (وهي المراجع التي اعتمدت عليها الترجمة العربية لهذه المقالة)

- *The Madman: His Parables and Poems*. New York: Alfred A. Knopf, 1918.
  كتاب **المجنون: أمثاله وأشعاره** – ترجمة أنطونيوس بشير، صدرت منه طبعات مختلفة منها: دار العرب، القاهرة، 1985م
- *The Forerunner: His Parables and Poems*. New York: Alfred A. Knopf, 1920.
  كتاب **السابق: أمثاله وأشعاره** – ترجمة أنطونيوس بشير، صدرت منه طبعات مختلفة منها: دار العرب، القاهرة، 1985م
- *The Prophet:* New York: Alfred A. Knopf, 1923. Reprint. Annotated, edited, and with an introduction by Suheil Bushrui. Oxford and Boston: Oneworld Publications, 1995.
  كتاب **النبي** – صدرت له ترجمات وطبعات عديدة منها: ترجمة د. ثروت عكاشة مع مقابلة النص الإنجليزي، دار الشروق، القاهرة، وصدرت الطبعة التاسعة عام 2000م
- *Sand and Foam: A Book of aphorism*. New York: Alfred A. Knopf, 1926.
  كتاب **رمل وزَبَدْ: كتاب حكم وأمثال** – صدرت له ترجمات وطبعات عديدة منها: ترجمة د. ثروت عكاشة ، دار الشروق، القاهرة، وصدرت الطبعة السادسة عام 1999م
- *Jesus, the Son of Man: His Words and His Deeds*. New York: Alfred A. Knopf, 1928.
  كتاب **يسوع (عيسى) ابن الإنسان: أقواله وأفعاله** – صدرت له ترجمات وطبعات عديدة منها: ترجمة د. ثروت عكاشة ، دار الشروق، القاهرة، وصدرت الطبعة السادسة عام 1999م
- *The Earth Gods*. New York: Alfred A. Knopf, 1931.
  كتاب **أرباب الأرض** – صدرت له ترجمات وطبعات عديدة منها: ترجمة د. ثروت عكاشة ، دار الشروق، القاهرة، وصدرت الطبعة الرابعة عام 1999م
- *The Wanderer: His Parables and His Sayings*. New York: Alfred A. Knopf, 1932.
  كتاب **التائه: أمثاله واقواله** – أحدث طبعة وترجمة لهذا الكتاب صدرت عن الناشر دار المؤلّف، بيروت، لبنان، 2017

- *The Garden of the Prophet.* New York: Alfred A. Knopf, 1933.

كتاب **حديقة النبيّ** – صدرت له ترجمات وطبعات عديدة منها: ترجمة د. ثروت عكاشة مع مقابلة النص الإنجليزي، دار الشروق، القاهرة، وصدرت الطبعة التاسعة عام 2000م

(ويلاحظ أن كتاب **حديقة النبيّ** قد نشر لأول مرّة بالإنجليزية عام 1933 بعد وفاة جبران بعامين، وقد وافته المنيّة قبل أن يفرغ من تأليف هذاالعمل، وقامت سكرتيرته باربارا يونج بإكماله وإصداره في مجلّد واحد. ولا يعلم أي فصول الكتاب هي من عمل جبران وأيها بقلم باربارا، ولهذا يبقى الكتاب من عمل كاتبين.)

ثانيا – أعماله العربية وترجماتها إلى الإنجليزية

- كتاب **الموسيقى** – نشر في جريدة المهاجر بنيويورك 1905

Al-Músiqá. New York: Al-Mohajer, 1905.

- كتاب **عرائس المروج** – نشر في جريدة المهاجر بنيويورك عام 1906، ثم باللإنجليزية في ترجمتين مختلفتين عامي 1948، 1993

'Ará'is al-Murúj. New York: Al-Mohajer, 1906.

Translated by H. M. Nahmad as *Nymphs of the Valley*. New York: Knopf, 1948; London: Heinemann, 1948

Translated by Juan R. Cole as *Spirit Brides*. Santa Cruz, Calif.: White Cloud Press, 1993.

- كتاب **الأرواح المتمرّدة** – نشر بالعربية في جريدة المهاجر بنيويورك عام 1908، ثم باللإنجليزية في ترجمتين مختلفتين عامي 1947، 1948

al-Arwáh al-Mutamarrida. New York: al-Mohajer, 1908.

Translated by H. M. Nahmad as *Spirits Rebellious*. New York: Knopf, 1948; London: Heinemann, 1948.

Translated by Anthony Rizcallah Ferris as *Spirits Rebellious*. New York: Philosophical Library, 1947.

- كتاب **الأجنحة المتكسّرة** – نشر بالعربية في جريدة مرآة الغرب عام 1912، ثم بالإنجليزية في ترجمتين مختلفتين عامي 1966، 1998

al-Ajniha al-Mutakassira. New York: Mir'át al-Gharb, 1912.

Translated by Anthony R. Ferris as *The Broken Wings*. New York: Citadel Press, 1957; London: Heinemann, 1966.

Translated by Juan R. I. Cole. Ashland, Ore: White Cloud Press, 1998.

- كتاب **دمعة وابتسامة** – نشر بالعربية في جريدة أطلانتيك بنيويورك عام 1914، ثم بالإنجليزية عام 1950

Dam'a wa Ibtisáma. New York: Atlantic, 1914.

Translated by H. M. Nahmad as *A Tear and a Smile*. New York: Knopf, 1950; London: Heinemann, 1950.

- كتاب **المواكب** – نشر بالعربية في جريدة مرآة الغرب بنيويورك عام 1919، ثم بالإنجليزية عام 1947

al-Mawákib. New York: Mir’át al-Gharb, 1919.
Translated by M. F. Kheirallah as *The Procession*. New York: Arab-American Press, 1947.

- كتاب **العواصف** – بالعربية طبع دار الهلال بالقاهرة عام 1920، وترجمته الإنجليزية عام 1993

al-’Awásif. Cairo: al-Hilál, 1920.
Translated by John Walbridge as *The Storm: Stories and Prose Poems*. Santa Cruz, Calif.: White Cloud Press, 1993.

- كتاب **إرم ذات العماد** – نشر بالعربية بعد وفاة جبران في طبعات متعددة، ظهر في آخرها ضمن مجلّدين بعنوان **المجموعة الكاملة لمؤلّفات جبران خليل جبران،** (وتتضمن هذه المجموعة ما نشر لجبران بالعربية مع الترجمة العربيّة لأعماله الإنجليزية للمترجمين أنطونيوس بشير وعبد اللطيف شرارة) تقديم ميخائيل نعيمي، دار السّادر، بيروت، عام 1964 كما نشرت ترجمته الإنجليزية ضمن مجموعة بعنوان "أقوال روحية"، عام 1947

Iram, Dhát al-’Imád. Published posthumously in *al-Majmú’a al-Kámila li-Mu’allifát Jubrán Khalil Jubrán;* ed. Míkhá’íl Nu’aymí. 2 vols.; Beirut: Dár al-Sádir, 1964.
Translated by A. R. Ferris as “Iram, City of Lofty Pillars” in *Spiritual Sayings*. New York: Philosophical Library, 1947.

- كتاب **البدائع والطرائف،** طبع يوسف البستاني، القاهرة عام 1923

al-Badá’i’ wa’l-Tará’if . Cairo: Yúsuf Bustání, 1923.

- كتاب **كلمات جبران** – طبع يوسف البستاني، القاهرة عام 1927

Kalimát Jubrán. Cairo: Yúsuf Bustání, 1927.
Translated by A. R. Ferris as *Spiritual Sayings*. New York: Citadel Press, 1962.

- كتاب **السنابل** – طبع في جريدة السائح بنيويورك عام 1929

al-Sanábil (*Heads of Grain;* New York: al-Sá’ih, 1929.

ثالثا – رسائل جبران

- مجموعة رسائل إنجليزية لجبران نشرت بعنوان **خليل جبران – صورة ذاتية**

Kahlil Gibran: A Self-Portrait.
Translated by Anthony R. Ferris. New York: Citadel Press, 1959; London: Heinemann, 1960.

- مجموعة الرسائل الإنجليزية المتبادلة بيل جبران وماري هاسكل، نشرت بنفس العنوان

The Letters of Kahlil Gibran and Mary Haskell. Edited by Annie Salem Otto. Houston: Otto, 1970.

- مجموعة رسائل إنجليزية بين جبران وماري هاسكل نشرت بعنوان **النبيّ المحبوب: رسائل الغرام بين جبران وماري هاسكل ومادوّنته بمفكرتها الشخصية**

Beloved Prophet: The Love Letters of Kahlil Gibran and Mary Haskell and

Her Private Journal. Edited by Virginia Hilu. New York: Knopf, 1972.

- مجموعة رسائل عربية نشرت ترجمتها العربية بعنوان **رسائل لم تنشر من جبران إلى أمين ريحاني**

Unpublished Gibran Letters to Ameen Rihani. Edited and translated by Suheil Bushrui and Salma Kuzbari. Beirut: Rihani House for the World Lebanese Cultural Union, 1972.

- مجموعة رسائل عربية من جبران إلى الأديبة مي زيادة نشرت بالعربية و الإنجليزية بعنوان **الشعلة الزرقاء: رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة**، تحقيق سلمى الكزبري وسهيل بشروئي، وإصدارها العربيً للناشر مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان من طبعتين ثانيتهما ظهرت عام 1984، ولهذه المجموعة إصداران بالإنجليزيّة هما:

Blue Flame: The Love Letters of Kahlil Gibran to May Ziadah. Edited and translated by Suheil Bushrui and Salma Kuzbari. Harlow, U.K.: Longman, 1983.

Revised as *Gibran: Love Letters: The Love Letters of Kahlil Gibran to May Ziadah*. Oxford: Oneworld, 1995.

- مجموعة رسائل عربية نشرت ترجمتها الإنجليزية بعنوان **رسائل لم تنشر من جبران إلى الأسقف أنطونيوس بشير**

"Gibran's Unpublished Letters to Archbishop Antonious Bashir." Translated by George N. El-Hage. *Journal of Arabic Literature* 36, no. 2:172–182 (2005).

رابعا – مخطوطات ولوحات

- عشرين لوحة صدرت في كتالوج بنفس العنوان *Twenty Drawings*. New York: Alfred A. Knopf, 1919.
- مجموعة وليم شهادي لمخطوطات جبران ومفكّراته وأوراق تتعلق بكتب "النبي"، "المجنون"، "السابق"، "أرباب الأرض". وجميعها محفوظة بقسم الكتب النّادرة والمجموعات المتميّزة، بمكتبة جامعة برينستون، بولاية نيوجيرسي الأمريكية. Department of Rare Books and Special Collections, Princeton University Library, Princeton, N.J.

خامسا – المجموعات الجزئية والكاملة لأعمال جبران كما نشرت بالإنجليزية

- *The Essential Gibran*. Edited and translated by Suheil Bushrui. Oxford: Oneworld, 2007.
- *The Collected Works, With Eighty-four Illustrations by the Author*. New York: Alfred A. Knopf, 2007. وقد استمد كاتب هذه المقالة معظم مادّته من هذه المجموعة
- *The Complete Works of Khalil Gibran*. Delhi: Indian Publishing House, 2007.

° *The Treasured Writings of Kahlil Gibran*. Edited by Martin L. Wolf, Anthony R. Ferris, and Andrew Deb Sherfan. Edison, N.J.: Castle Books, 2005.

القسم الثاني
أعمال إنجليزية تضمّنت سيرة جبران ودراسات نقدية لأعماله
(مرتّبة أبجديا بحسب أسماء مؤلّفيها)

° Bush, George H. W. "Remarks at the Dedication Ceremony for the Khalil Gibran Memorial Garden, May 24, 1991"

(http://bulk.resource.org/gpo.gov/papers/1991/ 1991_vol1_556.pdf).

° Bushrui, Suheil. *Kahlil Gibran of Lebanon*. Gerrards Cross, U.K.: Colin Smythe, 1987.

° Bushrui, Suheil. "Kahlil Gibran of America." *Arab American Dialogue* 7, no. 3:1–10 (January-February 1996).

° Bushrui, Suheil. "Introduction." In *The First International Conference on Kahlil Gibran: The Poet of the Culture of Peace, December 9–12, 1999*. Bethseda, Md.: University of Maryland Press, 1999. P. 7. (Online at http://www. steinergraphics.com/pdf/gibranprogramme.pdf)

° Bushrui, Suheil, and Joe Jenkins. *Kahlil Gibran, Man and Poet: A New Biography*. Oxford: Oneworld, 1998.

° Gibran, Jean. "The Symbolic Quest of Kahlil Gibran: The Arab as Artist in America." In *Crossing the Waters: Arabic-Speaking Immigrants to the United States Before 1940*. Edited by Eric J. Hooglund. Washington, D.C.: Smithsonian Institution Press, 1987. Pp. 161–171.

° Gibran, Jean, and Kahlil Gibran. *Kahlil Gibran: His Life and World*. 1974. Rev. ed. Northampton, Mass.: Interlink, 1998.

° Hanna, Suhail ibn-Salim. "Gibran and Whitman: Their Literary Dialogue." *Literature East and West* 12: 174–198 (1968).

° Hawi, Khalil S. *Kahlil Gibran: His Background, Character, and Works*. Beirut: Arab Institute for Research and Publishing, 1972. (First published in the Oriental Series of the Faculty of Arts and Sciences at the American University of Beirut in 1963.)

° Irwin, Robert. "I Am a False Alarm." *London Review of Books,* September 3,

1998, p. 17. (Review of *Kahlil Gibran: Man and Poet,* by Suheil Bushrui and Joe Jenkins, and *Prophet: The Life and Times of Kahlil Gibran,* by Robin Waterfield.)

- Karam, Antoine G. "Gibran's Concept of Modernity." In: *Tradition and Modernity in Arabic Literature*. Edited by Issa J. Boullata and Terri DeYoung. Fayetteville: University of Arkansas Press, 1997. Pp. 29–42.
- Knopf, Alfred A. "Random Recollections of a Publisher." *Massachusetts Historical Society Boston Proceedings* 73: 92–103 (1961).
- Kusumastuty, M. Imelda. "The Mode of Expression and Themes of Kahlil Gibran's Aphorism in *The Prophet*." *Phenomena: A Journal of Language and Literature* 8, no. 2:8–15 (October 2004).
- Majdoubeh, Ahmad Y. "Gibran's *The Procession* in the Transcendentalist Context." *Arabica* 49, no. 4:477–493 (2002).
- Naimy, Mikhail. *Kahlil Gibran: A Biography*. New York: Philosophical Library, 1950.
- Naimy, Mikhail. *Kahlil Gibran: His Life and His Works*. Beirut: Khayyat, 1964.
- Naimy, Mikhail. "The Mind and Thought of Khalil Gibran." *Journal of Arabic Literature* 5, no. 1:55–71 (1974).
- Naimy, Mikhail. "'A Strange Little Book.'" *Saudi Aramco World,* March-April 1983, pp. 8–9. (Online at

  http://www. saudiaramcoworld.com/issue/198302/a.strange.little.book. htm)
- Nassar, Eugene Paul. "Cultural Discontinuity in the Works of Kahlil Gibran." *MELUS* 7, no. 2:21–36 (summer 1980). Reprinted in his *Essays Critical and Metacritical.* Rutherford, N.J.: Fairleigh Dickinson University Press, 1983.
- Pierce, Patricia Jobe. "Gibran, Kahlil." In *American National Biography*. Edited by John A. Garraty and Mark C. Carnes. Oxford: Oxford University Press, 1999.
- "*The Prophet*'s Profits." *Time,* 86, no. 7 (August 13, 1965). Salma, Khadra Jayyusi. "Gibran Khalil Gibran (1883– 1931)." In *Trends and Movements in Modern Arabic Poetry*. Vol. 1. Edited by Khadra Jayyusi Salma and Christopher Tingley. Leiden: Brill, 1977. Pp. 91–107.
- Shahíd, Irfan. "Gibran and the American Literary Canon: The Problem of *The Prophet*." In *Tradition, Modernity, and Postmodernity in Arabic Literature:*

Essays in Honor of Professor Issa J. Boullata. Edited by Issa J. Boullata, Kamal Abdel-Malek, and Wael B. Hallaq. Leiden: Brill, 2000. Pp. 321–334.

- Shahid, Irfan. "Gibran Kahlil Gibran Between Two Millennia." Farhat J. Ziadeh Distinguished Lecture in Arab and Islamic Studies, Department of Near Eastern Languages and Civilization, University of Washington, Seattle, April 30, 2002. (Online at http://depts.washington. edu/nelc/ziadehseries.html)
- Shehadi, William. *Kahlil Gibran, a Prophet in the Making: Book Based on Manuscript Pages of "The Madman," "The Forerunner," "The Prophet," and "The Earth Gods."*Beirut: American University of Beirut, 1991.
- Summers, D. S. "The Source of 'Ask Not.'" *American Scholar* 74, no. 2:142–143 (spring 2005).
- Walbridge, John. "Gibran: His Aesthetic and his Moral Universe." *al-Hikmat* (Lahore) 21:47–66 (2001). (Online at http://www.personal.umich.edu/~jrcole/gibran/papers/ gibwal1.htm)
- Walbridge, John. "Kahlil Gibran." In *Twentieth-Century Arab Writers*. Edited by Majd Yaser al-Mallah and Coeli Fitzpatrick. *Dictionary of Literary Biography,* vol. 346. Detroit: Gale Cengage Learning, 2009.
- Waterfield, Robin. *Prophet: The Life and Times of Kahlil Gibran*. New York: St. Martin's, 1998.
- Wild, Stefan. "Friedrich Nietzsche and Gibran Kahlil Gibran." *Abhath* 22:47–58 (1969).
- Young, Barbara. *This Man from Lebanon*. New York: Knopf, 1945.